رحلة الكتاب
في الحضارة الإنسانية

محمد رجب السامرَّائي





العدد ٣٩١ - شعبان ١٤٣٠ هـ - أغسطس ٢٠٠٩ م

رحلة الكتاب
في الحضارة الإنسانية

محمد رجب السامرّائي



رئيس التحرير

د. عثمان بن محمود الصيني

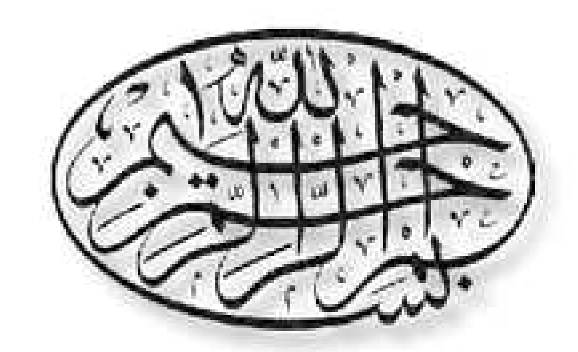
الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

هاتف: ٤٧٧٨٩٩٠ - ٤٧٧٩٧٩٢ فاكس: ٤٧٦٦٤٦٤

ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢

المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com - info@arabicmagazine.com



إضاءة

قال سبحانه وتعالى:

« اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَق».

سورة العَلَق / ١

المحتويات

المقدمـــة

الكتب كنوز المعرفة الإنسانيّة، وتجارب الحياة عبر السنين، فيها علم الماضين ورؤاهم واستشرافهم صوب المستقبل. وقد أطنب المؤرخون في تبيان مزايا الكتب وفضلها ومنافعها على الجميع. منهم الخطيب البغدادي الذي وضع في مُصنفه «تقييد العلم» قسماً خاصاً للإشارة لفضل الكتب، وما قيل فيها، ويقع في ستة فصول، منها ما رواه التابعي الجليل سعيد بن جبير -رضي الله عنه- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله تعالى للآية ٨٣ من سورة الكهف: «وكانَ تحتهُ كنزٌ لهُما». فقد اختلف في تأويل ذلك الكنز، فقال بعضهم: «كان صُحفاً فيها علم مدفونة»، قال: ما كان ذلك ذهباً ولا فضة، قال: صُحفاً وعلماً. وعلق الحسن بن صالح بقوله: وأيّ كنز أفضلُ من العلم. وقال بعض الحكماء: لن يُصان العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه بمثل نشره.

والجَاحِظ «ت ٢٥٥هـ»، «الذي عشق الكتب والتي أودت بحياته، وصف الكتب التي عشقها وأفنى جُلّ حياته في طلبها والكتابة في فنونها وموسوعاتها فقال: « الكتاب وعاءُ العلم وحافظُ المعرفة المُدونة التي تبقى خزانة للأجيال يقرؤونها ويستفيدون من العلم والمعرفة التي

أودعها المؤلف بين دفتي كتابه المنشور، والكتاب نِعْم الذخر والعقدة، ونِعْم الجليس ساعة الوحدة، ونِعْم القرين والدخيل، والوزير والنزيل، والكتابُ وعاءٌ مُلئ علماً، وظرفٌ حُشي ظُرْفاً، إنْ شئتَ كان أبينَ من سحبان، وإنْ شئتَ كان أعيا مِن باقِل، وإنْ شئتَ ضحكتَ مِن نوادرِه، وعجِبْتَ مِن غرائبِ فوائده، وإنْ شئتَ شجتكَ مواعظهُ، ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ وبزاجرٍ مُغْرٍ، وباسكٍ فاتكٍ، وبناطقٍ أخرس، وبشيء يجمعُ لكَ الأول والآخر، والناقص والوافر والشاهد والغائب، والحسن وضدّه».

إننا نجد أن الكتاب يحتل مكانة مهمة عند العرب فهو عندهم مَعْلَم حضاري وديني، ارتبط بالإسلام الذي كان فتحاً مُبيناً لهم. فقد جعل النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام فداء كل أسير من المُشركين تعليم عشرة صبيان من المسلمين القراءة والكتابة، وهو ما يؤكد ارتباط القراءة والكتابة بانتشار الإسلام، الذي أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- في أول آية قرآنية بالقراءة قال تعالى في سورة العَلَق/ ١: «اقرأ باسم ربكَ الذي خَلَق».

ولكي نُسلط الضوء على رحلة الكتاب في الحضارات الإنسانيّة الأولى القديمة وفي الحضارة العربيّة الإسلاميّة من بعدها، فقد عقدنا مفردات هذا الكُتيب لقارئ «المجلة العربيّة»، ليطلع عبر رحلتنا معه على جوانب عديدة عن الكتاب خير جليس في الزمان، أي زمان..

الكتـــاب
في الحضارات الإنسانيّة الأولى

للكتاب حكاية تاريخية تمتد جذورها مع فجر الحضارات الأولى، حيث ساهموا في إرساء دعائم حضارات دول كانت لها صولات وجولات في صفحات التاريخ، ودول سادت ثم بادت. ولعلّ أولى الحضارات الإنسانيّة في العالم نجدها قد انطلقت من أرض الرافدين في الحضارة العراقية القديمة، حيث نستعرض ما أبدعه أصحاب تلكم الحضارات الأولى للإنسانية جمعاء من معارف وعلوم ونتاج ثقافي وفكري من الكتب والمكتبات وغيرها.

السومريون واختراع الكتابة

لعلّ أولى الحضارات التي نبدأ معها حكاية رحلة الكتاب هم «السومريون» الذين أرسوا أقدم الحضارات في بلاد الرافدين والذين عاشوا في النصف الثاني للألف الخامسة قبل الميلاد. وخلال القرون التي تلت الهجرة السومرية نمت الدولة وتطورت في الفنون والعمارة والعلوم.

ويعد الحاكم السومري الملك إيتانا (Etana) ملك مدينة كش أوّل مَن وحد بلاد سومر منذ عام ١٨٠٠ق.م. وجاء في الموسوعة الحرة : أن ظهر بعده (ميسكياجاشر) ملك مدينة أوروك "الوركاء" جنوب مدينة كش، وقام بالسيطرة على منطقة تمتد من ساحل سورية على البحر الأبيض المتوسط حتى جبال زاجروس. وخلفه ابنه إنمركار عام ٢٧٥٠ ق.م،

واستولى على مدينة أراتا بشمال شرق بلاد الرافدين. وفي عام ٢٧٠٠ ق.م. قام إنمبارجاسي Enmebaragesi ملك دولة إتانا بكش بالسيطرة على بلاد سومر. وانتصر على دولة عيلام Elam، وأقام معبدا للإله إنليل بمدينة نيبور التي أصبحت المركز الديني والحضاري لسومر. وفي سنة ٢٦٧٠ ق.م. انتهى حكم إتانا بكش بعد سقوطه على يدّ ميزنباد ملك مدينة أور التي جعلها عاصمة بلاد سومر. لكن بعد موته بسطت مدينة أوروك نفوذها السياسي عليها بواسطة جلجاماش (٢٧٠٠ ق.م. -٢٦٥٠ ق.م.) الذي دارت حوله الملحمة العراقية الشهيرة جلجامش.

وقد شاد السومريون في العراق حضارة متقدمة بكلّ نواحي الحياة، ومنها تشربت كلّ الحضارات الكبرى التي تطورت في الشرق الأوسط. إلاّ أنّ السومريين سُرعان ما اختفوا من مسرح التاريخ بعد أن فقدوا استقلالهم السياسي أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد، وتلاهم من بعدهم الأكاديون والبابليون والآشوريون في العراق القديم.

وقد أظهرت التنقيبات الأثرية في العراق منذ الماضي عن وجود المدن السومرية، وعن أقنية الريّ، وعن الهياكل الضخمة، وعن آلاف الرُقم الطينية التي نُقشت عليها الكتابة المسمارية أو الكتابة التصويرية-الصورية - وأصبحنا منذ تلكم الاكتشافات المُعلنة المدروسة نتبين مدى عمق وأصالة ودور السومريين في رفد الحضارة بكلّ جديد ومُبتكر، وعلى رأسها كما يعترف علماء الآثار الكتابة والكِتاب والمكتبات عندهم.

ويحدثنا د. ألكسندر ستيبتشفيتش في «تاريخ الكتاب» عن السومريين

ودورهم في إرساء أبجدية الكتابة والكتب والمكتبات التي اشتهرت عندهم، فيقول بأنّ: السومريين هم الذين قاموا أولاً باستخدام الكتابة للتعبير عن الفكر، مع أنّ هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعاً. وإنّ أقدم الشواهد على الكتابة السومرية في العراق هي تلك الرُّقُم الطينية الصغيرة التي نُقِشَت عليها الكتابة التصويرية والتي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وربما يكون السومريون قد بدؤوا بالكتابة قبل هذا التاريخ على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للأبد.

مدرسة وورشة للكتابة

لقد تمّ العثور على مئات الرُّقُم الطينية التي نُقِشَت عليها الكتابة التصويرية وهي الأقدم التي طورها السومريون في مدينة أوروك- الوركاء- جنوب العراق اليوم، وهي ترجع إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت كان أهل سومر يستعملون حوالي «٢٠٠٠ إشارة تصويرية»، إلاّ أنّ هذا العدد أخذ يقلّ تدريجياً نتيجة لتزايد ارتباط الإشارات بالأصوات حتى وصل عددها إلى «٥٠٠-٦٠٠ إشارة» وذلك خلال الألف الثانية قبل الميلاد.

وبعد ذلك بفترة تغير شكل الإشارات السومرية في حدّ ذاته على مرّ القرون المتعاقبة، فالأشكال الأساسية- المرحلة التصويرية- ستنتظم في إشارات لا تشبه كثيراً الأصول الأولى التي تطورت منها. وكان ممّا ساهم في التطور المورفولوجي لتلك الإشارات الطريقة الجديدة لكتابتها

على الطين الطريّ بواسطة أقلام رفيعة من القصب أو الخشب والتي كانت تتحرك على الطين إشارات طويلة على هيئة مُثلث تشبه المسامير، ومن هنا جاءت تسمية هذه الكتابة أيضاً «الكتابة المسمارية». وقد نجح أهل سومر في تطوير هذه الكتابة إلى حدّ أنّهم استطاعوا أن يُدونوا بها أدقّ المفاهيم التجريدية وأرقّ المشاعر الإنسانيّة.

وكان السومريون يحتفظون بالرُقُم الطينية في أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو في المدارس. وقد تمّ العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق في المدن السومرية الكبيرة ككش وأوروك ونيبور... وكشف عالم الآثار الأمريكي س. ن. كرامر عن أحد النصوص المدونة على رقيم طيني محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا- ولاية بنسلفانيا الأمريكية- عبارة عن فهرس لإحدى المكتبات، يعود تاريخ هذا الرقم الطيني إلى حوالى سنة « ٢٠٠٠ قبل الميلاد»، الذي عُثِرَ عليه في بقايا مدينة نيبور، المركز الديني والثقافي للسومريين حيث اكتشف أيضاً الكثير من الرُقُم الطينية بالإضافة إلى ورشة للكتابة ومدرسة بحالة جيدة. ووجد على الوجه الأمامي والخلفي للرقيم الطيني المُكتشف سجلاً لاثنين وستين كتاباً في موضوعات مختلفة، وأنّ الكتب الثلاثة عشر الأخيرة تنتمي إلى مجموعة «الحكمة».

الكتابة عند البابليين

بابل هي عاصمة المملكة البابلية لإمبراطوريتين بابليتين،وكان السومريون أقدم سكان بلاد بابل في العراق القديم . وقد ورد ذكر بابل

في القرآن الكريم " وما أنزل على المَلكينِ ببابلَ هارُوتَ وماروتَ". وذكرت الموسوعة الحرة أنّ المدينة كانت مركزًا دينيًا وتجارياً لبلاد بابل. وتعني كلمة «بابل» في اللغة الأكادية «باب الإله»، و سماها الأقدمون بعدة أسماء منها "بابلونيا"، أرض بابل ما بين النهرين وبلاد الرافدين، وصارت بابل بعد سقوط سومر قاعدة إمبراطورية بابل ، وقد أنشأها الملك حمورابي حوالي ٢١٠٠ق.م ، التي امتدت من الخليج العربيّ جنوبًا إلي نهر دجلة شمالاً، وقد دام حكم الملك حمورابي « ٤٣ عاماً»، حيث ازدهرت فيها الحضارات البابلية والذي يُعدّ عصره العصر الذهبي للبلاد العراقية.

البابليون أحباء الكتابة

ورث البابليون عن السومريين حُبّ الكتابة، بل إنّ الأساتذة البابليين قد تفوقوا على السومريين. ففي عصر الازدهار الكبير، خاصة خلال عهد الملك حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، توصل البابليون إلى إنتاج كتابي ضخم ممّا دفع عالِم الآثار الألماني ر. غولدوى، الذي قام بعملية التنقيب في العاصمة بابل، إلى أن يطلق على البابليين «أحباء الكتابة» وفي الواقع أنّ عدد الرُّقُم الطينية البابلية التي تمّ العثور عليها فيها حتّى الآن يتجاوز «٦٠٠ ألف رُقُم» تتضمن مختلف الموضوعات.

وتشير تلك اللُّقى الآثارية المُكتشفة في العاصمة البابلية إلى أنّ أهل بابل كانوا يُدونون وينسخون الرُّقم في ورشٍ خاصة ويحفظونها في المكتبات أو في مراكز الوثائق والخزائن الخاصة التي كانت تنتشر في المعابد وفي قصور الحُكّام. وتمّ اكتشاف مكتبات من هذا النوع تحتوي كلّ

واحدة منها على عشرات الألوف من الرُّقم الطينية، في مدن كيش وسبار وفي بقية مراكز الثقافة في بابل.

مكتبة إيبلا المركزية

استعمل أهل بابل الكتابة المسمارية والرُّقم الطينية، كما استعملتها شعوب أخرى في بلاد الرافدين في العراق وفي البلدان المجاورة له، وتمكن بعض هذه الشعوب من إنجاز كتابي ضخم وتنظيم جيد للمكتبات فيها وفق أحدث الطُرق في الحفظ والتبويب والفهرسة.

وحول دور وأهمية المكتبة المركزية في إيبلا ذكر ألكسندر ستيبتشفيتش أنّه قد تم اكتشافها في تل مردوخ، الذي يقع على بعد «٥٥ كم» في جنوب غرب مدينة حلب السورية، حيث كانت تقوم في الأزمنة القديمة القوية والغنية إيبلا، وفي عام ١٩٧٤م كشفت الحفريات الأثرية التي كان يقوم بها منذ العام ١٩٦٤م خبراء من جامعة روما، عن مكتبة أو مركز للوثائق في حالة جيدة، بحيث يمكن القول: إنّ هذه أقدم مكتبة تمّ اكتشافها حتى الآن وخلال الأبحاث الأركيولوجية الكثيفة تمّ اكتشاف بقايا القصر الملكي الكبير الذي كان يحتوي على قسمين خاصين بالكتب، ومن هنا أخرج العلماء «١٧ ألف رُقم طيني» مدوّنة بالحروف المسمارية ولكن باللغة الإيبلية.

وتشير المراجع التاريخية إلى أنّ هذا القصر الملكي قد تهدم عام ٢٢٥٠ قبل الميلاد نتيجة للحريق الذي شبّ خلال هجوم الملك الأكدي نرام سين. ونتيجة لهذا الحريق فقد التهمت ألسنة النيران الرفوف الخشبية

التي كانت تحمل الرُّقُم الطينية، ممّا سبب تساقط هذه الرُّقُم فوق بعضها البعض وهذا الحدث قد ساعد علماء الآثار على إعادة تصور كيفية توزع هذه الرُّقُم في ذلك العهد. إذ اتضح لهم أنّ هذه الرُّقُم الطينية- محتويات المكتبة- كانت مُرتبة الواحد وراء الآخر بحيث كان بالإمكان تصفحها، كما نتصفح اليوم البطاقات المُفهرسة في أي مكتبة، أما بالنسبة للرُّقُم الطينية الكبيرة، التي كانت تختصّ وتتعلق بشؤون الإدارة والدولة، فقد كانت تُسند على الجدار في الأرضيّة. واشتملت الرُّقُم الطينية على سجلات مختلفة لحُكّام إيبلا، ورسائل تاريخية وأناشيد وأعمال أدبية بالإضافة إلى عدد كبير من المعاجم الإيبلية- السومرية والحكايات الميثولوجية والأمثال، كما عُثِرَ من هذه النصوص على أكثر من نسخة واحدة!

الكتب في أوغاريت

كانت مدينة أوغاريت ملتقى للطرق التجارية حيث أوجد التجار والدبلوماسيون والكهنة وأصحاب الغايات من مصر كذلك أوجد الحيثيون والبابليون والآشوريون والقبارصة تجمعاً شرقياً وحضوراً معروفاً في شوارع هذه المدينة.

وفضلاً عن تلك العلاقات فقد كانت أوغاريت تتبادل الرأي ومعرفة كلّ ما يحصل في البلدان الأخرى، ممّا كان يخلق فيها شرطاً مثالياً للمركز المتواصل والخلاّق الذي تبرز فيه الأفكار الجديدة والذي يضمن لنفسه الاستمرارية والتواصل الثقافي والفكري مع الآخرين. وعثر العلماء الفرنسيون على كنز نفيس عام ١٩٣٩م برئاسة ك. شافير، وبشكل واسع

ومنظم في رأس شمرا. ومن بين الأشياء التي اكتشفوها في هذا الموقع الرُّقم الطينية الكثيرة التي نُقشت عليها الحروف المسمارية للغة مجهولة حتى ذلك الحين- اللغة الأوغاريتية- هذا بالإضافة إلى رُقم كثيرة بلغات تلك الشعوب التي كان أهل أوغاريت يقيمون معهم صلات تجارية ودبلوماسية، وعُرِفَ فيما بعد بأنّ ما تمّ العثور عليه في موقع شمرا إنّما هو ألواح ورُقم تتضمن نصوصاً أدبية وقانونية ومعرفية ودينية.

وقد استدل المُنقبون الآثاريون بأنّ تلك الألواح والرُّقم لا يمكن أن تُنجز إلاّ بتوافر ورش للكتابة ومدارس للكُتّاب ومكتبات لحفظها، حيث اكتشفت البعثة مكتبة وورشة للكتابة في البناء ذاته، ومن خلال الكتابات الجدرانية اتضح لديهم أنّ البناء كان مقراً مخصصاً لسكن ومكاتب رئيس الكهنة في أوغاريت. وكان هذا الرئيس يحتفظ في مكتبته بكتب دينية وثقافية، نظراً للمنصب الرفيع الذي يحتله، كما عثروا على معاجم ورسائل غير عادية بعنوان«معالجة الحصان المريض».!

أما في عام ١٩٥٩م فقد اكتشفت في أوغاريت مكتبة خاصة أخرى، مُوزعة على قسمين، ووجد الآثاريون فيها معاجم كثيرة ونصوصاً فلكية وأدبية، ومن بين هذه كان هناك مقطع للحكايات السومرية- البابلية الشائعة عن كلكامش.

مكتبة الملك آشور بانيبال

بعد توالي السنين وتطور الحياة، تطورت أوسع وأهم مكتبة في بلاد الشرق الأوسط القديم، تلك المكتبة الضخمة الشهيرة التي أسسها بعناية

فائقة الملك الآشوري آشور بانيبال الذي تولى الحُكم عام ٦٦٩-٦٢٧ قبل الميلاد.

أما حكاية هذه المكتبة الآشورية الملكية الضخمة، فقد عُثر عليها مُصادفة في بداية التنقيبات الأثرية في العراق، فخلال عام ١٨٤٥-١٨٥١م كان الدبلوماسي الإنجليزي أ. هـ. لايرد كونجيك بالقرب من مدينة نينوى حيث تمّ اكتشاف العاصمة الآشورية نينوى.

وقد اكتشف لايرد البلاط الملكي للملك الآشوري سنحاريب «٧٠٥-٦٨١قبل الميلاد»، ووجد ما سمّاه «غرفة السجلات». وقد تابع عمله بعد ذلك هـ. راسم خلال الأعوام ١٨٥٢-١٨٥٤م، وفي الأعوام ١٨٧٧-١٨٨١م، الذي اكتشف بقايا قصر الملك آشور بانيبال ومكتبته الضخمة التي تحتوي على أكثر من «٢٠٠٠٠» رقم طيني!

لقد أبانت تلك المكتبة بأنّ الملك الآشوري آشور بانيبال قد هيأ فريقاً كبيراً من الكُتّاب الذين كلفهم بأمر مَلَكي بأن ينسخوا عدّة مرّات كل نصٍّ قديم يتمّ الحصول عليه. وقد كان الكُتّاب يسجلون بكلّ فخرٍ أصل وقِدَم الأصلي: «نصّ منسوخ من بلاد آشور التي هي مصدر النصّ الأصلي»، أو «حسب أحد الرُّقم من بابل»... وهكذا إنّ هذه الإشارات وغيرها تكشف عن كبير الجهد والتنظيم اللذين تمّ بهما نسخ النصوص القديمة لمكتبة آشور بانيبال. وبالإضافة إلى هذا فقد تمّ ببساطة نقل الكثير من الرُّقم من المدن الأخرى للإمبراطورية الآشورية إلى هذه المكتبة في نينوى بالعراق، حيث نُقلت مكتبة كاملة من مدينة كالح إلى نينوى.!

ثم يذكر بأنّ الملك آشور بانيبال الذي كان يحبّ الثقافة، كان يهتم ويشرف أيضاً بنفسه على إتمام نسخ كلّ الرُقم القديمة التي يمكن العثور عليها في أرجاء إمبراطوريته أو نقلها إلى مكتبته، ففي إحدى رسائله إلى أحد المسؤولين في مدينة بابل تجده يأمره بقوله: «ابحثوا في الرُقم القيمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها لي. لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ومحافظ المدينة في بورسيبا عنك، وعليك الآن يا شادان أن تحفظ الرُقم في مقرك بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئاً. وحيثما تجد أيّ رُقم أو أيّ نصٍّ يمكن أن يُناسب قصري فخذهُ وأرسله إلى هنا».!

وكان لكل رُقم في مكتبة الملك الآشوري الضخمة ما يشير إلى مضمونه وإلى ناسخه وما شابه ذلك. وفي نهاية كلّ رُقم نصّ منقوش بواسطة قالب أو خاتم نحو: «رُقْم رَقَم... في صفٍّ... قصر الملك آشور بانيبال، ملك العالم، ملك بلاد الآشوريين».

الطين مادة الكتابة الرئيسة

بعد تلك السياحة التي أشرنا فيها عن الحضارات المتعاقبة في إنتاج الكتابة والكتاب والمكتبات عند السومريين، والبابليين، وفي مملكة إيبلا، وأوغاريت،وعند الآشوريين، لابد لنا من ذكر حقيقة متعلقة بالإنتاج المعرفي والثقافي آنذاك، ألا وهي بيان أدوات الكتابة التي كان ذلك الإنتاج الفكري والثقافي يستمد منها ديمومته وآفاق تقدمه كرائد في سُلّم الحضارات الأولى التي عُنيت بالكتابة والكتاب والاهتمام بالأوعية

الثقافية لهما ممّا يدل على الفكر الوقّاد لهؤلاء الأقوام الذين أحبوا المعرفة منذ بواكير عهدها وفجر سلالاتها الأولى التي أشعت على الإنسانيّة بخالد الفكر، وعظيم الإنجاز والإبداع في شتى مناحي الحياة العامة.

فقد كانت مادة الطين المتوافرة بسهولة عند هؤلاء الأقوام هي صاحبة الفضل الأول في ثقافات الشعوب الأولى، نتيجة لمقاومة الطين للظروف المناخية والتقلبات الجوية، وبالتحديد إلى صلابته المعروفة. فكان سكان سومر وبابل وآشور وأكد وغيرهم في الحضارات العراقية القديمة يأخذون «الطين» وهو المادة الخام لصنع الرُّقم من ضفاف نهري دجلة والفرات، بينما كانت طريقة صنعه غاية في السهولة. ففي البداية كان الطين يوضع في إناء مع الماء بغرض تصفيته بحيث يسقط الحَصَى والمواد الثقيلة الأخرى نحو الأسفل بينما يطفو على السطح القشّ وفتات الخشب وغير ذلك من الشوائب الموجودة في التراب. وفي هذه الحالة كان يُلقى ما يطفو على السطح بحيث كان يسهل أخذ الطين بعد فصله عمّا هبط منه إلى الأسفل. وعلى هذا النحو كان العراقيون القدماء يتمكنون من الحصول على الطين النقي الخالص الذي يستعملونه لصناعة الرّقم ويكتبون على هذه الرقم ما يشاؤون.

أما عن أحجام ومقاسات تلك الرُّقم الطينية فكانت تختلف من واحدة إلى أخرى، فهناك رُقم تتراوح مقاساتها بين ٥-٦ سنتيمترات- ٢٠-٢٥ سنتيمتراً من حيث الارتفاع، وكان الكُتّاب ينقشون الإشارات على الطين

النقي، ثم كانت تُوضع الألواح المكتوبة والمُنجزة تحت أشعة الشمس إلى أن تجفّ. أما الرُّقم التي تتضمن اتفاقيات تجارية مهمة ووثائق للدولة وأعمالاً أدبية ومعاجم مختلفة، أو أي نصّ مُخصص للاستخدام العام، فقد كان يتمّ شيُّها لحمايتها من التشوّه والتبديل. ٤

حضارة الصين

عرفت الحضارات القديمة الكتابة التي دونوا فيها كلّ ما يحتاجونه من معاملات وسجلات للناس، فضلاً عن كون الكتابة هي أداة تدوين معارفهم وإبداعاتهم المختلفة في العلوم والآداب والفنون المختلفة. ونتوقف عند بدايات تلك المعارف الكتابية وتدوين الكتب لنبدأها من بلاد الصين، الذين برزت عندهم في وقت مبكر مشكلة كيفية نسخ الكتب بسرعة، خاصة الكتب الدينية لتلبية حاجات عدد متزايد من القراء. ويشير د. ألكسندر ستيبتشفيتش في «تاريخ الكتاب» إلى أنّ الصينيين منذ العصر القديم قد توصلوا إلى وسيلة لنسخ الكتب بشكل ميكانيكي بواسطة النقوش الحجرية. وفي العصر القديم أيضاً كان الصينيون يستعملون في الغالب أختاماً مصنوعة من الحجر أو العظم أو المعدن لينسخوا الكثير من اللوحات المختلفة والنصوص الدينية القصيرة. وقد بقي سكان الصين يستعملون هاتين الطريقتين خلال العصر الوسيط. ففي عهد أسرة تانغ «٦١٨ – ٩٠٦ م» تورد المصادر بشكل متميز «عمّال النسخ» الذين كانوا مُخولين بنسخ الكتب من نقوش حجرية، وفي اليابان أيضاً، كانت الكتب تُنسخ بهذه الطريقة حتى القرن الرابع عشر الميلادي.

نسخ الكتب بالقوالب الخشبيّة

كانت الأوساط الدينية في عهد أسرة الصيني تانغ، وحتى في وقت لاحق، تفضل نسخ الكتب بهذه الطريقة على نسخ الكتب بواسطة القوالب الخشبية التي تطورت حينئذ لأنّها كانت تعتقد أنّ الحجر فقط يمكن أن يحفظ النصوص الأصلية للكتب المُقدسة وجَمال الكتابة الصينية القديمة.

ولقد عايش إنتاج الكتاب في الصين تطوراً قوياً في عهد الأسرة المذكورة، التي قام حُكامها المتعلمون بجهود كبيرة لتطوير العلوم والفنون ولبعث إشراق الإمبراطورية القديمة، وكان ذلك يُماثل في مغزاه عهد أوغسطين بالنسبة لتطور الثقافة الرومانية. وقد وصلت الصين حينئذ إلى قمّة تطورها الثقافي في عهد الإمبراطور مينغ هوانغ (٧١٢-٧٥٦م) الذي عاش فيه أكبر الشعراء والفنانين الصينيين.

مكتبة تاي تسونغ

كما يرجع المؤرخون الفضل في هذه النهضة الثقافية بالصين إلى سياسة التسامح التي انتهجها الحُكام الصينيون إزاء كافة التعاليم الدينية والفلسفية، سواء التي كانت تبرز في الصين نفسها أو التي كانت تأتي إليها من أنحاء مختلفة من العالم. ففي بلاط الحكام الصينيين في ذلك الوقت -القرن السابع الميلادي- كان يمكن للمرء أن يشاهد في الوقت نفسه البوذيين والكنفوشيوسيين المُبشرين الأوائل بالمسيحية. كما نجد في

بداية حُكم هذه الأسرة قيام الإمبراطور تاي تسونغ «٦٤٩م»، بتأسيس مكتبة كبيرة في العاصمة الإمبراطورية تشانغ ـ آن، حيث تذكر بعض المصادر أنّها كانت تحتوي على «٥٤ ألف» لفافة بينما ترفع بعض المصادر الأخرى هذا الرقم إلى «٢٠٠ ألف» لفافة!

أقدم نصّ في مغارة!

وفي عهد هذه الأسرة، وبشكل مُؤكد ومنذ القرن الثامن الميلادي، بدأ في الصين نسخ الكتب بواسطة القوالب الخشبية، وفي الواقع فإنّ المؤرخين يذكرون أنّ بعض اللوحات والنصوص قد نُسخت بهذه الطريقة منذ نهاية القرن السادس الميلادي، إلاّ أنّه لم يتمّ العثور حتى الآن على أي نسخة عن تلك الفترة. أما أقدم نصّ مطبوع بواسطة القوالب الخشبية في الصين وموجود حتى الآن فيعود تاريخه إلى سنة ٧٥٧م. وكان هذا النصّ قد اكتشف سنة ١٩٤٤م في مغادرة في منطقة ستشوان، وهو يتضمن أحد النصوص البوذية المقدسة « رهاراني سوترا». إلاّ أن أقدم كتاب مطبوع بواسطة القوالب الخشبية في الصين محفوظ حتى الآن يعود إلى سنة ٨٦٨م، وهو يتضمن النص البوذي « سوترا الماسية».

المشروع الثقافي للوزير تاو

كانت الصين عقب انهيار أسرة تانغ قد دخلت في فترة الاضطرابات الاجتماعية الكبرى، حين كان الحُكام وكذلك الأسر الحاكمة يتغيرون بسرعة، ولكن في هذه الفترة بالذات، الحافلة بالاضطرابات الاجتماعية،

برز الوزير النشيط فنك تاو «٩٣٢ - ٩٥٣م» الذي قرر إصدار طبعة نقدية لمؤلفات بواسطة الكُتّاب الكلاسيكيين التسعة.

وهكذا بدأت الصين أهم فترة في تطوير الطباعة بواسطة القوالب الخشبية ، وقد ذاع صيت الوزير فنك تاو بسبب هذا المشروع الكبير إلى حدّ أنّ التواريخ القديمة ربطت اختراع الطباعة باسمه. أما السبب الذي دفع الوزير فنك تاو لتبني هذا المشروع الثقافيّ والمعرفيّ في تاريخ الصين، فيرجحه المؤرخون إلى وجود ملاحظة تعود إلى سنة ٩٣٢م. إذ كان هذا الوزير، كغيره من الكثيرين الذين سبقوه، قلقاً لأنّ نصوص الكلاسيكيين المنسوخة باليدّ كانت تنتقل في البلاد في روايات مختلفة دون أن تكون بينها أي رواية صحيحة، وحين شاهد الوزير الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية أمر على الفور أن تُنجز طبعة مُحققة لنصوص الكلاسيكيين التسعة. ولأجل هذا فقد شكل الوزير تسع لجان من أفضل الخبراء الموجودين في الأكاديمية القومية «كو - تزوتشين»، الذين عملوا ٢١ سنة لإنجاز هذه الطبعة المُحققة. وبالإضافة إلى هذا فقد أمر الوزير بتجنيد أفضل الخطاطين والفنانين لإعداد الألواح الخشبية اللازمة للطباعة، كما عيّن على رأس هذا المشروع «تين مين»، مدير الأكاديمية القومية الذي تولى سنة ٩٥٣م إعلام الإمبراطور بإنجاز الطبعة المُحققة لنصوص الكلاسيكيين التسعة التي احتوت على شروح مناسبة و طبعت في ١٣٠ صفحة.

كان لمشروع الوزير الصيني الثقافي هذا أهمية كبيرة بالنسبة إلى

تطور الطباعة الصينية، ولذا يُقارن المؤرخون والخبراء هذا الاختراع المعرفي من ناحية الاختراع باختراع «جوتنبرغ» بالنسبة إلى طباعة الكتب في أوروبا، إلاّ أنّ الفرق بين الاثنين كان كبيراً بالنسبة للفارق الزمني بينهما.

كتب في الشوارع والساحات

نتيجة لازدهار الطباعة والتأليف عند الصينيين في ذلك الوقت، فقد تطورت لديهم شبكة منظمة لتوزيع الكتاب في أرجاء البلاد الواسعة. وهكذا كانت كتبهم تباع في المكتبات وفي الشوارع والساحات العامة . ومن هذه الفترة فقد أرّخ المؤرخون الصينيون لأقدم لوحة معروفة في العالم تمثل إحدى المكتبات وقد رُسمت هذه اللوحة في لفافة - الاحتفال الربيعي على ضفاف النهر، حوالى العام ١١٠٠م- وهي تمثل مكتبة « كايفن» عاصمة الإمبراطورية للصين آنذاك، كما أشار المؤرخون إلى وجود مكتبة عامة عامرة في المدن الصينية الأخرى خلال عهد أسرة سونغ.

عند الكوريين

جاءت في أواخر القرن الرابع الهجري الديانة الجديدة- البوذية- من الصين إلى كوريا التي أثرت بصورة كبيرة في تطور الثقافة الروحية والكتابة والطباعة لدى الكوريين. ويرجع أقدم نصّ طبع في كوريا إلى العصر القديم، وقد أخذت حينئذ بالطريقة التي كان الصينيون قد اخترعوها وطبعوا بها كتبهم المقدسة، أي الطباعة بواسطة النقوش

الحجرية. وقد حفظت لنا كما يقول ألكسندر ستيبتشفيتش من القرن الخامس الميلادي نماذج من هذه النقوش الحجرية، التي كان يريد منها حُكام كوريا أن تُخلد بطولاتهم أثناء الحرب أو أن تُسجل أبرز الحوادث المهمة التي تحدث في عصرهم.

وتبرز الاكتشافات الكورية في السنوات الأخيرة نصّاً كورياً مطبوعاً فيها بواسطة القوالب الخشبية ممّا أصبح يُشكك في كلّ القناعات السائدة حول أسبقية الصينيين في استعمال الطباعة بالقوالب الخشبية. كما اكتشف الأثاريون في العام ١٩٦٦م في معبد «بولفوك- سا» بالقرب من العاصمة الكورية القديمة «كيونغ يو»، أقدم نصّ مطبوع بواسطة القوالب الخشبية ممّا يُعرف في العالم حتى اليوم. ويوضح النصّ المُكتشف عن الكتاب البوذي «فيمالا ميربهاسا سوترا»، أو «دهاراني سوترا»، الذي تُرجم من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الصينية العام ٧٠٤م، ثم انتقل من الصين إلى كوريا حيث طُبع حتى العام ٧٥١م كحد أقصى، حين تمّ إنجاز «الأسطبة» - برج بوذي على شكل قبّة- التي حفظ فيها النصّ المذكور، والذي طُبع على شكل لفافة من الورق لا يتجاوز عرضها» ٦،٥ سم»، بينما يصل الطول الأصلي لها إلى «٧ أمتار»، وتحفظ اليوم في المتحف الوطنيّ في العاصمة الكورية سيئول.

« ٢٠ عاماً» للطبعة الكورية

ثم شهدت الطباعة في كوريا آفاقاً أرحب للتحسن والتقدم خاصة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين نتيجة لتطور التعليم في

عموم البلاد. وقد حدث العام ٩٨٩م أنّ الملك الكوري«هون دونغ»، طلب من الإمبراطور الصيني أن يرسل له نسخة كاملة من مجموعة المؤلفات البوذية «تريبيتاكا». وخلال أعوام « ١٠١١-١٠١٤م» جرى العمل بأمر الملك لإنجاز القوالب الخشبية اللازمة لإصدار الطبعة الكورية لهذه المجموعة، وأنجز العمل خلال« ٢٠ عاماً».

بعد ذلك، بمرور الأعوام تطورت الطباعة لدى الكوريين، حتى إنّهم أدخلوا تحسيناً وتطويراً مهماً على تقنية الطباعة منذ القرن الثالث عشر الميلادي، بحيث احتل الكوريون المرتبة الأولى في العالم في هذا الميدان.

أما أقدم كتاب طُبع بواسطة الحروف المعدنية المتحركة فكان «سانغ يونغ- يمون»، أي- قواعد مفصلة وأصيلة لأصول السلوك- الذي طبع عام ١٢٣٤م في «٢٨ نسخة» بجزيرة غانغ هوا. ثم استمر النشاط الطباعي الكوري لنصل إلى القرن الخامس الميلادي الذي شهد انطلاق مشاريع طباعية ضخمة ومن أبرزها المشروع الطبي الكبير«هيانغ ياك تشيسونغ بانغ»، الذي صدر عام ١٤٣٣م، وتضمن « ٨٥ جزءاً»، والمُؤَلّف الآخر الكبير «أوبيانغ يوتشوي»، الذي صدر في كوريا عام ١٤٤٥م ويقع في« ٣٦٥ صفحة» أي على عدد أيام السنة الواحدة!

في اليابان

استقطبت الحضارة الصينية القديمة العديد من الدارسين فيها نتيجة لتقدم الدراسة والمعرفة فيها. فقد كان الطلاب اليابانيون يسافرون

للدراسة في الصين، ويرجعون إلى بلادهم يحملون معهم منجزات الثقافة الصينية. بينما كان عدد من المُبشرين الصينيين يذهبون إلى مدينة «نار»عاصمة اليابان ليؤثروا على حياة أبناء الإمبراطورية.

وكان الصينيون يحملون معهم الكتب المؤلفة عندهم، خاصة الكتب الدينية، ثم الكتب الطبية والأدبية وغيرها... كما أنّ الصينيين الزائرين لليابان كانوا يحملون معهم تقنية الطباعة بواسطة القوالب الخشبية، ومن بينهم الراهب «غمبو» الذي عاد إلى بلاده بعد أن قضى «١٨ عاماً» في الصين وحمل معه «٥٠٠٠ كتاب بوذي».

ونتيجة لهذا التمازج الثقافي والفكري بين الصين واليابان، فقد أخذ اليابانيون يقلدون الصينيين في كلّ مجال، ففكروا في أن يقوموا بأنفسهم بطباعة القوالب الخشبية. وكان المساعد على تنفيذ ذلك المشروع التأثير المعروف للرهبان البوذيين في مختلف مناحي الحياة اليابانية، خاصة في الحياة الثقافية والدينية للعاصمة «نار».

ويروى بأنّ حكام اليابان كانوا متحمسين للديانة البوذية أيام حُكم الإمبراطورة «سهوتوكو» التي حكمت اليابان بشكل مُتقطع خلال الأعوام «٧٤٨-٧٦٩م»، حيث نجد مشروعاً ضخماً للطباعة وقتذاك، إذ أمرت الإمبراطورة حينئذ بتشييد مليون «باغودة» صغيرة - معبد بوذي يتميز ببرجه المتعدد الطبقات- وأن يُعلّق على كلّ واحدة نصّ مطبوع. وهكذا تسارعت ظروف الطباعة المتقدمة في اليابان والتي ركزت في طباعتها أولاً على الكتب الدينية، حيث انتهت الإمبراطورة من طباعة النصوص

عام ٧٧٠م، ثم وزعت تلك النصوص المطبوعة على المعابد في أرجاء اليابان، ويدل هذا المشروع على أنّ اليابان قد طبعت أول نصوص على الورق بواسطة القوالب النحاسية عوضاً عن القوالب الخشبية.

طباعة سوترا...

ولعلّ من المفيد أن نشير إلى أنّ أبرز مشاريع الطباعة في المعابد اليابانية هي طباعة كتاب «سوترا العظيمة الحكيمة» خلال القرن الثالث عشر الميلادي، ويقع في «٦٠٠ صفحة». وتشير الوقائع التاريخية أنّ أغلب هذه الكتب الأولى قد اختفت خلال الحروب الأهلية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ولكن في أواخر القرن التالي اكتسبت الطباعة اليابانية دفعة ونشاطاً جديداً من التطور والتقدم جاءتها من كوريا وأوروبا.

وكان لتأثير الدول المجاورة أثره البيِّن على ثقافات الشعوب المجاورة، فقد تأثر الأويغور الأتراك الذين استقروا خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين في منطقة الواحة الكبرى تورفان، التي تقع اليوم في جمهورية تركستان. وكان هذا الشعب قد طوّر فيها ثقافة مهمة إلى أن تمكن المنغوليون من تدمير دولتهم في القرن الثالث عشر الميلادي.

ولكن تمكنت بعثة ألمانية قد نقبّت في المنطقة خلال أعوام «١٩٠٢-١٩٠٧م» من اكتشاف عدد كبير من الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية، التي حفظت إلى الآن بفضل المناخ الجاف لواحة تورفان. وأنّ الكتب التي كانت تطبع في تورفان كانت تتمّ بست لغات وهي: «الأويغورية،

الصينية، السنسكريتية، التوتغورية، التيبتية، والمنغولية»، بينما كانت تستخدم الوثائق والأوراق المختلفة سبع عشرة لغة، بعدها تحولت هذه الواحة- تورفان-إلى جسر لنقل تقنية الطباعة من الصين إلى الشعوب الأخرى.

بلاد الهند

عاشت بلاد الهند الواسعة عصرها الذهبي إبّان العصر الوسيط في تطور العلم والرياضيات والهندسة والأدب، وشهد إنتاج الكتاب فيها تطوراً كبيراً نتيجة لتلبية احياجات المدارس الكثيرة، حيث كان الطلاب يتعلمون التاريخ والمعارف والطبّ، وكانت الكتب تُنسخ تلبية لحاجات الجامعات العديدة بالهند، خاصة جامعة نالاندا ولمكتبتها الفنية التي كان يستفيد منها الطلاب والأساتذة على حدّ سواء.

وخلال القرن الثامن الميلادي وعند قدوم العرب، وانتشار الإسلام في شبه القارة الهندية، خاصة في القرن الحادي عشر الميلادي، فقد كان لهما الأثر الكبير على مصير الكتب التي تجمعت حتى ذلك الحين. وقد كانت النصوص الهندية القديمة مُعرضة للضياع والفقدان إذ إنّ المشافهة خلال العصر الوسيط لا تزال وسيلة متطورة لتناقل النصوص الأدبية والعلميّة. وكان الرهبان الهنود ينسخون الكتب الدينية في معابدهم. ومع تدفق المسلمين إلى بلادهم تطور في الهند إنتاج جديد للكتاب يرتبط بديانة وثقافة المسلمين بشكل متوازٍ مع استمرار النشاط التقليدي لنسخ الكتب في عموم الهند.

واستعمل الهنود خلال العصر الوسيط سعف النخيل مادة للكتابة وتحدث الرحالة الصيني «زوان زانغ» عن الاستعمال الواسع لسعف النخيل في الهند، إذ أشار إلى أنّ حول المعبد البوذي في « كونكانابور» جنوب الهند كانت توجد هناك غابة من النخيل تؤمن المادة الأولية لإنتاج الكتاب في داخل المعبد.

ثانياً:

الوِراقة والورّاقُون

في الحضارة العربيّة الإسلاميّة

كان نتيجة لازدهار حركة التأليف والنشر في العصر العباسيّ في بغداد، وشيوع حركة الترجمة من اللغات اليونانية والفارسية، أن نشأت إلى جانبهما مهنة اشتُق اسمها من الوَرق الذي عُرِفَ في مدينة سمرقند وصُنِع مِن ثمّ في بغداد عاصمة الخلافة العربيّة الإسلاميّة إبّان الخلافة العباسية في العراق.

وعُرِفَت هذه المهنة باسم «الوِراقَة»، وعُرِفَ مُتعاطوها باسم «الورّاقين»، وهو الاسم المعروف في العراق خاصة في بغداد اليوم في سوق السراي وشارع المتنبي في صوب الرصافة، حيث توجد فيها أكبر المكتبات والمطابع ومكتبات بيع القرطاسية والأوراق والأحبار ومستلزمات الطباعة وما يلزم ذلك.

ولقد عرّف ابن خلدون في مقدمته الوِراقة بأنّها: «مُعاناة الكتب بالانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكُتُبيّة والدواوين». بينما عرّفها السمعاني في «الأنساب» بقوله: «الورّاق اسم مَن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يُقال لِمن يبيع الورق وهو الكاغد ببغداد، الورّاق أيضاً».

إذن الوراقة هي مهمة انتساخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس، والورّاق هو مَن يقوم بأداء تلك المهمة، وقد يكون هو الناسخ، أو يكون غيره، وله مَن ينسخون له، بالإضافة إلى ما يستتبع عليه النسخ من التجليد والتذهيب وبيع الورق والأقلام والمحابر والدويّ- جمع دَوَاة- أي أنّ الورّاقين كانوا يقومون بما تقوم به دور النشر والتوزيع في عصرنا الحديث، من الطبع والتوزيع وبيع الورق وأدوات الكتابة اللازمة.

بدايات حِرْفَة الوراقة

وربّ سائل يسأل متى بدأت حرفة الوِراقة، وكيف كانت أولياتها؟ فيحدثنا الدكتور يحيى وهيب الجبوري في «الكتاب في الحضارة الإسلاميّة» لاشكَ أنّ حِرفَة الوراقة قد ازدهرت في المدن الكبرى، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكانت سبباً من أسباب ازدهار حركة التأليف والنشر والترجمة، كما ألمحنا في البدء، وقد أضحت صورة مُشرقة بهيّة من صور الحضارة العباسية في قمّة عطائها، وقد مثلت الوراقة كلّ أنواع النشاط العقلي والفكري في العلوم العربيّة والإسلاميّة، وفي العلوم المنقولة- المُترجمة- عن الأمم الأخرى كاليونان والرومان.

أما عن البدايات الأولى للوراقة فقد كانت مُتصلة ببيع الورق والأقلام وأنواع الحبر والمداد، وكلّ ما له صلة بالكتابة، وكان أول ما عُرِفَ من النسخ هو نسخُ المصاحف الشريفة لكتاب الله الكريم، وكان الصحابة الكرام، والتابعون ينسخون المصاحف لأنفسهم، ثم صار الناس ينسخون لغيرهم، بعدها تجاوز ذلك على كتابة الحديث وسائر العلوم الدينية والتاريخية

واللغوية والأدبية.

وأقدم ما عرفنا من الورّاقين الذين كانوا ينسخون المصاحف بالأجرة هو خالد بن أبي الهيّاج، الذي كان يُوصف بحُسن الخطّ، وقد اختصّ بكتابة المصاحف والشعْر والأخبار للخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك. فيورد ابن النديم في «الفهرست» أنّ الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز سأل الهيّاج أن يكتب له مصحفاً على غرار المصحف الذي كان في قِبْلَة مسجد النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- : «فكتب له مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عُمر يُقبّله ويستحسنه، واستكثر ثمنه فرده عليه». ومن قُدامى الورّاقين الذين كانوا يستنسخون المصاحف الشريفة بأجرة، مالك بن دينار «ت ١٣١هـ»، وكان جابر بن زيد الأزدي يُعجب بابن دينار ومن كسبه الحلال هذا، فقد دخل عليه يوماً فوجده يكتب المصحف الكريم، فقال له : مالكَ صنعة إلاّ أن تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة، هذا والله كسب الحلال، هذا والله كسب الحلال.

وراقة المصاحف الشريفة

يتضح لنا من خلال رواية ابن النديم أنّ وراقة المصاحف الشريفة كانت سابقة على وراقة الكتب في مختلف العلوم، وقد عُرِفَ من كُتّاب المصاحف المشهورين أمثال، خشنام البصريّ، ومهدي الكوفي، وكانا أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي لَم ير مثلهما، وإنّ البصريّ كانت أَلِفَاتُهُ ذراعاً مشقاً- شقّاً- بالقلم، بينما كان ابن جري يكتب المصاحف اللطاف أيضاً أيام الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد في سُرّ مَن رأى- سامراء

اليوم – في العراق، وكان من كبار الكوفيين وحذّاقهم، ومنهم أم شيبان، والمسحور، وأبو خميرة وابنه، وأبو الفرج.

كما كان من الورّاقين مُذَهبّون للمصاحف الشريفة ومُجلدون، برعوا في تجليدها وتذهيبها، فمن المُذهّبين، اليقطيني، وإبراهيم الصغير، وأبو موسى ابن عمّار، وابن السقطي، وأبو عبدالله الخزيمي، وابنه. ومن المجلدين نذكر، ابن أبي الحريش، وكان يُجلّد في خزانة «بيت الحكمة» للخليفة المأمون بن هارون الرشيد في بغداد، وهناك شفة المقراض العجيفي، وأبو عبس بن شيران، ودميانة الأعسر، وابن الجمام إبراهيم، وابنه محمّد والحسين بن الصفّار.

وقد ازدهرت صناعة الورق في العصر العباسي في العراق حتى أصبح عصر ازدهار الوراقة والورّاقين، إذ تيسر الورق، وعرفت صناعته سمرقند، ثم صُنِّعَ في بغداد وبُنِي له مصنع لإنتاجه، ورخص ثمنه، كما رخصت أثمان البردي، وقد كان من نتيجة ذلك أن شاع التصنيف والتأليف، وكثر المُصنفون من العلماء والأدباء، وظهرت الحاجة إلى الوراقة، فكثر الوراقون في هذا العصر، ورافق ذلك حركة علمية مشهودة في أوائله.

وكان المؤلفون غالباً ما يختارون لنسخ كتبهم ومؤلفاتهم الورّاقين المعروفين بجودة الخط وصحة النقل ودقة الضبط، والحذق في التزويق والتذهيب في كتابة المصاحف الشريفة، وعُرِفَ بعض الورّاقين بهذه الأوصاف التي تجود بها الوراقة، وقد ذكر ابن النديم بعضاً من هؤلاء الورّاقين في الفهرست، كأبي موسى الحامض الذي اشتُهر بصحة الخطّ

وحسن المذهب في الضبط، ومحمّد بن عبدالله الكرماني الذي كان مُضطلعاً بعلم اللغة والنحو مليح الخط صحيح النقل.

وكان من هؤلاء بإشارة ياقوت الحموي في معجم الأدباء المشهود لهم بالحذق وجَمَال الخط وجودة النقل: أحمد بن محمد القرشي الذي كان يتمع بخط حسن مشهور، وهناك المُحسن بن حسين العبسي المعروف بابن كوجك، الذي كان خطه مرغوباً فيه يشبه خط المؤرخ الطبري، أما أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي دجانة المصري، من أهل مصر وكان مقامه في بغداد وبها كتب ونسخ الكثير، فله خط جيد وهو كثير الضبط إلاّ أنّه مع ذلك لا يخلو خطه من السقط، وإن قلّ. ومن الورّاقين الآخرين المبدعين محمّد بن أبي الجوع الذي أثنى عليه ابن خلكان في وفياته، وقال عنه بأنّ نسخه كان في غاية الجودة وخطه مرغوب فيه، وهناك أيضاً السرّاج الورّاق المشهور وخطه في غاية الحُسن والقوة والأصالة.

وقد تفاخر أبو المطهر الأزدي في مناظرته لأهل أصفهان بشهرة بغداد وتميز ورّاقيها وجودتهم وحُسن خطهم، وكمالِ صنعتهم، فقال لهم: هل أرى عندكم من أرباب الصناعات مثل ما أرى ببغداد من الورّاقين والخطاطين.

وهؤلاء الورّاقون وغيرهم من المُحسّنين المُجَوِّدينَ كانوا في المشرق.

أما في المغرب، فقد وفد على بلاد الأندلس طائفة من الورّاقين المُبدعين، منهم ظفر البغدادي الذي اتخذ مدينة قرطبة مقاماً وسكناً، وكان من رؤساء الورّاقين المشهورين بالضبط وحُسن الخطّ، وأحمد بن محمد بن الحسن الخلاّ ل الأديب الذي اشتهر بخطه المليح الرائق والضبط المُتقن

الفائق. ومن ورّاقي المغرب الجيدين أيضاً عباس بن عمر الصقلي، ويوسف البلوطي، وغيرهم.

التوحيدي وحِرْفَة الشُؤم

أبـو حيّان التوحيدي علي بن محمد بن العباس التوحيدي «٣١٢-٤١٤هـ»، أبرز كتّاب النثر العربي القديم الذين نالوا حظوة ومكانة عند الباحثين»، وممّا أهلّه لنَيْلِ تلكم المنزلة الأدبية الموسوعية الشاملة التي تبـرز للقارئ من خلال مُصنفاتـه الوافرة«الإمتاع والمُؤانسة، المقابسات، الصداقة والصديق، مثالب الوزيرين، الإشارات الإلهية،...»، كونه امتهن حِرْفة الوراقة والنسخ التي زاولها في مدينته بغداد، إضافة إلى معرفته بأمور التصحيف والتحريف، وهو ذو الخط الجميل في الكتابة، مع توفر دقة نقوله.

كان عمل التوحيدي في النسخ والوراقة جيداً في بغداد، لذا أخذ يحاول التغلب على حرفة الشؤم التي عمل بها مع كثير من زملائه، الذين لم يسعدهم الحظ ليكونوا أصحاب مناصب « برأي الدكتور عبدالرزاق محيي الدين»؛ ولذا فقد أمّل نفسه الطموحة كي لا تذهب حرفته- الوِرَاقة- بالعُمرِ والبَصرِ منه، ولمّا سمع عن مجلس الوزير الحسن المهلبي وزير مُعز الدولة واحتفائه بالأدب والأدباء فإنّه عقد العزم على الوصول إليه وأن: «يُلقي بالوراقة جانباً، وأنْ يطلب حظه ومجده في دواوين الإنشاء وبيوت الرئاسة، ومجالس الوزراء» كما أشار في ليالي الإمتاع والمؤانسة.

ثم أفرغ التوحيدي ما اضطرب في صدره من غيظ على هؤلاء الوزراء

البويهيين الذين حكموا العراق، والذين جافوه بالصدود والحرمان حين ذهب إليهم في شيراز ممّا حلم بتحقيقه بعيداً عن موطنه العراق، ومدينته بغداد، فأوضح لتلكم العلاقة بصريح العبارة من الازدراء والتحقير فقال في كتابه مثالب الوزيرين: «ورماني عن قوسه معرقاً، فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظاً، وحرمني فازدريته، وحقرني فأخزيته، وخصّني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقته، والبادئ أظلم والمنصف أعذر».

نسخٌ مثله يأتي على العُمر والبصر

ثم أفرغ أبو حيان ما جاش به صدره من حقد على الوزير الأديب الصاحب ابن عبّاد، لأنّه حين طلب منه نسخ ثلاثين مجلدة له، فإنّ التوحيدي أطلق نفثة حرّى لأنّه أرفع وأسمى من أن يكون مجرد ناسخ في كنف وزير مترفع، وصرّح التوحيدي قائلاً: «قصدت ابن عباد بأمل فسيح، وصدر رحيب، فقدّم إليّ رسائله في ثلاثين مجلدة على أن أنسخها فقلت: نسخ مثله يأتي على العُمر والبَصر، والوراقة كانت موجودة في بغداد».

نعم لقد كانت الوراقة والنسخ تدران على أبي حيّان في بغداد ما يكفيه العيش وعدم الإلحاف في السؤال وتبدل الحال... ولكن عندما سمع الصاحب بن عباد تأفف التوحيدي من نسخ رسائله الثلاثين خاطبه في الإمتاع والمؤانسة قائلاً: «بلغني ذلك. فأجابه التوحيدي: ولو كان شيئاً يرتفع من اليد بمُدّة قريبة، لكنت لا أتعطل، وأتوفر عليه، ولو قرّر معي أجرة مثله لكنت أصبر عليه، فليس لمن وقع في شرّ الشبّاك وعين الهلاك

إلاّ الصبر». وإنّ خيبة الظنّ بمن أراد منهم التوحيدي أن يرفعوه إلى مجالسهم وأبطلوا وقتلوا أحلامه المشرئبة صوب العلا، قد بلغت عنده من النَيْلِ من ابن العميد والصاحب بن عباد نيلاً عظيماً، فحاول أن يحطم مجدّ ابن عباد بقوله عنه: «وأنْ ينتزع من قلوب الناس وعقولهم ما وقر عندهم من فضله،... وكأنه مُسلّط استخراج مخازيه، وإذاعة مساويه، فكتب تلك الرسائل الطويلة التي بثّ سمومه بالقدح والثلب».

...لقد استولى عليّ الحرفُ

إنّ حِرْفَة الوراقة والنسخ قد أخرجت التوحيدي من طوره، عندما قدّم إليه نجاح خادم الصاحب بن عباد ثلاثين مجلدة لينسخها له، فضجر أبو حيّان حين رآها وهو يؤمل نفسه في شيراز بعيداً عن بغداد بمنزله طالما حلم بها من الجاه والمنزلة المثلى في مجلس الوزير. فكان ردّ التوحيدي على الخادم قائلاً: «هذا طويل، ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر، وشذوراً كالدُرر، تدور في المجالس كالشّمامات». ولم يُعْجِب ابن عباد ردّ التوحيدي لخادمه، لأنّه طعن برسائله من طرف خفيٍّ، وهنا خرج الصاحب بن عباد عن وقاره وصوابه، فأدخله في ميزان الوعد والوعيد إذ قال: «طعن في رسائلي وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها؛ والله لينكُرنَ مني ما عرف، وليعرفنَ حظه إذا انصرف».

إنّ نصّ ياقوت الحموي يؤكد امتهان التوحيدي لحِرْفَة الوراقة والنسخ تحت الإجبار والإكراه، وهو مُقيم في مدينة الريّ عند الصاحب بن عباد التي وصلها سنة ٣٦٣هـ، ومن هنا قَوِيَ شُعور أبي حيّان بالعبث الذي استولى

عليه طوال حياته فكتب عن حرفته التي فيها ذهاب العمر والبصر بألم مُمض قائلاً: «لقد استولى عليّ الحرف وتمكن مني نكد الزّمان، إلى الحدّ الذي لا أسترزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف والتحريف، بمثل ما يُسترزق البليد، الذي ينسخ النسخ، ويمسخ الأصل والفرع».

ومن هذه الحادثة خالج التوحيدي شعور العبث، وأعطيت لنفسه شحنات متفاوتة منها، بقي لهُ من عُمر، أي قبل أن تبلغ شمس رأسه الحائط ويغلّ يديه من ماء الحياة، ففي السنة التي وضع فيها كتاب المقابسات «٣٦٠هـ»، نسمعه يقول: «وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة، وقد أضاع أكثرها، وقصّر في باقيها».

عيشي أضيقُ من مِحْبَرَة!

إنّ الوراقة والنسخ التي امتهنها التوحيدي، وضجر منها، وأُكره عليها، هي التي قادته إلى حافة الهاوية مع ذوي الجاه والسلطان. فحال الورّاق حالة لا تسر صاحبها في كل الأحوال. فقد سُئل أحد الوراقين عن حاله ذات يوم، فوصفها بأسلوب فيه مفارقة ظاهرة، إذ قال: "عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدقّ من مسطرة، وجاهي أرقّ من الزجاج ووجهي أشدّ سواداً من الزاج وحظي أخفى من شقّ القلم ويدي أضعف من القصب وطعامي أمرُّ من العَفص وسوء الحال ألزق بي من الصمغ. وقد هجا شاعرٌ ورّاقاً فقال:

ما فيه من عيبٍ سوى أنه
أبغي من الإبرة والمحبرة

ازدهار الخط العربي

وهناك علاقة ترتبط ارتباطاً كُلياً بحرفة الوراقة والورّاقين التي عرفنا ازدهارها وتفوقها في العصر العباسي، تلك العلاقة هي مرحلة تطور الخط العربي الذي نراه قد ازدهر في العصر الأموي، حيث ساعد خلفاء العصر على تطور الفنون التشكيلية وارتقائها، بما عمّروه من مساجد وقصور عامرة، وزخرفتها بالفسيفساء، والحفر على المرمر، وكتابة الآيات القرآنية الكريمة عليها، ومن ذلك قبة الصخرة المشرفة في القدس الشريف، والجامع الأموي في دمشق، وقصر المشتى، وقصر عمرة في الأردن، وقصر الحيرة، وقصر الجوسق في سامرّاء، فضلاً عن القلاع والحصون... كما نشط في تزويق المصاحف الكريمة وجلودها، وتطريز الملابس والكتابة على الأنسجة والملابس، وعلى الأواني النحاسية والسُرُج، وسواها الكثير.

وحتى القرن الثامن الميلادي، أي إلى أن بدأ العرب إنتاج الورق، كانت معظم الأبيات الشعرية والروايات وحتى «الإنجازات» العلميّة تنتقل من فرد إلى آخر بالمشافهة. ولكن لدينا في القرآن الكريم ذاته مُعطيات كافية تشير إلى أن العرب كانوا يستخدمون الرّق قبل ظهور الإسلام وغيره من مواد الكتابة لتدوين النصوص التجارية والإدارية إلخ.

النسخ في قصور الخلفاء

بدأت المرحلة الذهبية لإنتاج الورق للكتاب الإسلامي بازدياد أعداد

المخطوطات كثيراً وأخذ التنافس يشمل الخلفاء والوزراء الأغنياء على اقتناء الكتب الغالية والنادرة وأصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير بينما كان الكبار منهم يغمرون بالتواصي والهدايا القيمة. وكان الكثير من الخطاطين يعملون في المكتبات، حيث ينسخون هناك المؤلفات لحساب تلك المكتبات، بينما كان كبار الخطاطين يعيشون في قصور الخلفاء حيث ينسخون المؤلفات الغالية للمكتبات الخاصة. وإلى جانب هؤلاء كان هناك خطاطون يعيشون فقط من عملهم، أي حسب الطلب. وبين هؤلاء الخطاطين تمتع أولئك الذين كانوا ينسخون القرآن بشهرة خاصة كابن مكلا « ٨٨٦ – ٩٤٠» وابن البواب «توفي ١٠٢٣ م – ١٠٣٢م»، الذي يقال إنه كتب بخط يده خلال حياته ٥٠٠ نسخة من القرآن الكريم.

وكانت التجارة بالكتب نشيطة للغاية في كلّ المدن الإسلاميّة، وكان الورّاقون عادة يفتحون دكاكينهم أمام الجوامع والمدارس، وكانت هذه الدكاكين كثيراً ما تتمركز في شوارع خاصة حيث تكون حركة المارة على أشدها. إلاّ أنّ هذه الدكاكين لم تكن مقصورة فقط على بيع الكتب. بل كان يجتمع هناك المثقفون وأولئك الذين يريدون أن يصبحوا مثقفين كما كانت تناقش الموضوعات المختلفة وتنشد الأشعار وهكذا. وعلى الرغم من هذا فقد كان الدور المهم لهذه الدكاكين، بالإضافة إلى بيع الكتب، يكمن في نشر المعلومات حول المؤلفات الجديدة.

«١٠٠» دكان للوراقة في بغداد

كانت بغداد المركز الأساس لإنتاج الكتاب والاتجار به في العصر

العباسي. ففي رحلة الازدهار الكبير لإنتاج الكتاب في هذه المدينة وصل عدد دكاكين الوراقين إلى مئة. ومن بغداد كانت الكتب سرعان ما تجد طريقها إلى أبعد المدن في العالم الإسلامي. وعلى ظهور الجمال كانت القوافل تحمل الكتب من بغداد إلى البلدان، كما كانت تحمل الكتب أيضاً من هذه البلدان «بيزنطية، وسوريا، الهند» إلى بغداد.

وقد كانت الكتب التي ينسخها الخطاطون المعرفون، أو التي يكتبها المؤلفون أنفسهم غالية جداً ولم يكن في استطاعة أحد أن يقتنيها سوى الأغنياء. وعلى سبيل المثال يكفي أن نذكر أن ثمن كتاب المؤرخ الطبري «٨٣٩ ٩٢٣م» -كما يذكر المقريزي- كان يصل إلى مئة دينار.وكان هذا المبلغ بالنسبة لذلك الوقت ثمناً مرتفعاً، إذ إنّ الكتاب المتوسط كان يباع بدينار أو دينارين. وحتى هذا يبدو ثمناً مرتفعاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الأجرة السنوية لمقهى كانت لا تتعدى الدينار. أما أولئك الذين يملكون هذه الإمكانية فقد كانوا ينسخون المؤلفات بأنفسهم أو يعطونها إلى خطاطين مغمورين لكي ينسخوها.

ثالثاً:

الغريب والعجيب في المُصنفات العربيّة

الكتب كنوز المعرفة الإنسانيّة، وتجارب الحياة عبر السنين، فيها علم الماضين ورؤاهم واستشرافهم صوب المستقبل. لذا فقد أطنب المؤرخون في تبيان مزايا الكتب وفضلها ومنافعها على الجميع. وقد أفرد الخطيب البغدادي في مُصنفه «تقييد العلم» قسماً خاصاً للإشارة إلى فضل الكتب، وما قيل فيها، ويقع في ستة فصول، منها ما رواه التابعي الجليل سعيد بن جبير -رضي الله عنه- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله تعالى للآية ٨٣ من سورة الكهف: «وكانَ تحتهُ كنزٌ لهُما». فقد اختلف في تأويل ذلك الكنز، فقال بعضهم: كان صُحفاً فيها علم مدفونة»، قال: ما كان ذلك ذهباً ولا فضة، قال: صُحفاً وعلماً. وعلق الحسن بن صالح بقوله: وأيّ كنز أفضلُ من العلم. وقال بعض الحكماء: «لن يُصان العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه بمثل نشره».

لقد خلّف المؤلفون العرب العديد من الكتب التي دبجوها في شتى ألوان المعارف والعلوم، لكننا نجد في هذه الكتب الكثير من الغرائب والعجائب التي أودع حكاياتها المصنفون العرب ممّا قرؤوها أو عايشوها أو اطلعوا عليها فكتبوها في فصول تلك الكتب التراثية، ومن خلال قراءاتنا لأسفار

تراثنا الأدبي الثّر نلقي الضوء على غيض من فيض تلكم الغرائب والعجائب التي ازدانت بها مُصنفات مبدعينا العرب.

الأديب الموسوعي المعروف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ «ت ٢٥٥هـ» ولد وعاش في مدينته البصرة جنوب العراق أيام العصر العباسي الثاني وتنقل بين عاصمتي الخلافة بغداد وسامرّاء «سُرّ مَن رأى». وامتاز بثقافة مزيج من الأدب والفلسفة والعلوم، لأنّ ميوله الثقافية موزعة بين هذه العلوم، وله نثر رائق معروف في مؤلفاته مثل: البخلاء، البيان والتبيين، والحيوان، والتاج، والتربيع والتدوير، والبلدان، ورسائله.

ونجد في قراءتنا في مؤلفات الأديب الجاحظ نماذج من العجائب والغرائب التي ضمنها كتبه ومنها قوله ضمن السحر والتنجيم في كتاب الحيوان: «وما للديك إلاّ ما تقول العَوَام: أنّه إذا كان في الدار ديك أبيض أفْرَق- مفروق العُرْف- لم يدخلها شيطان وليس يقوم خبر ذلك، ولو كان ذلك حقاً بشؤمه لأنّ العوام تقضي على كلّ مَن كان في داره ديك أبيض أفْرَق بالزندقة...».

وقال الجاحظ في البخلاء عن الحيوانات الخرافية: «إنّي قد بتُّ بالقفر مع الغُول- اسمٌ لكلّ شيء من الجنّ ويعرض للسفار- وتزوجت السعلاة، وجاوبت الهاتف ورغبتُ عن الجِنّ إلى الحِنّ واصطدت الشقّ، وجاوبت النسناس، وصحبني الرئي، وعرفت خدع الكاهن وتدسيس العَرّاف».

حياة الحيوان الكبرى للدميري

كتاب «حياة الحيوان الكبرى» إسهامة خالدة لمؤلفها الشيخ كمال

الدين محمد بن موسى بن علي الدميري المولود بصعيد مصر في دميرة عام ١٣٤٩ ميلادية، والمتوفى عام ١٤٥٠ ميلادية ويقع كتابه في جزأين كبيرين، وكلّ جزء منهما يتألف من نحو أربعمئة صفحة. وقد رتبَ المؤلف الكتاب على حسب الحروف الهجائية، أي ترتيباً أبجدياً على طريقة المعجم المعروفة، وتناول بالبحث «١٠٦٩» كائنا أو دابة، جعل لكل كائن منها صفات تميزه عن غيره، مما كان معروفاً في ذلك الوقت، كما جاء في قول الباحثة خلود محمّد عنه في «تراث».

فقد ذكر الدميري في معرض حديثه عن الأفعى قوله: «الأنثى من الحيّات، ومن عجيب أمراها ما حكاه ابن شبرمة أنّ أفعى منها نهشت غُلاماً في رِجْله فانصدعت جبهته. وروى المُصنف عن الشيخ أبو الحسن الصوفي قوله: كنت ببادية تبوك فقدمت إلى بئر أستقي منها فزلقت رِجْلي فوقعت في جوف البئر فرأيت في البئر زاوية واسعة فأصلحت موضعاً وجلستُ فيه، فبينما أنا كذلك إذا أنا بخشخشة فتأملتُ فإذا أنا بأفعى سقطت عليَّ ودارت بِي وأنا ساكن السِّر لا أضطرب، ثم لَفت عليَّ ذنبها وأخرجتني من البئر وحلّت عني ذنبها ثم ذهبت عنّي»!!

وروى مؤلف حياة الحيوان الكبرى في معرض حديثه عن العصفور قائلاً: «يروى عن الجُنيد-الإمام الزاهد الجُنيد البغدادي- أنّه قال: أخبرني محمّد بن وهب عن بعض أصحابه أنّه حجّ مع أيوب الجَمّال قال: فلمّا دخلنا البادية وسِرنا منازل إذ بعصفور يحومُ حولنا، فرفع أيوب رأسه إليه وقال له: قد جئت إلى هنا فأخذ كِسْرَة خبز ففتها في كفه فانحطّ

العصفور وقعد فأكل منها ثم صبَّ له ماء فشربه ثم قال له: اذهب الآن، فطار العصفور، فلمّا كان من الغدِّ رجع العصفور ففعل أيوب مثل فعله في اليوم الأوّل ولم يَزَل كلّ يوم يفعل به مثل ذلك إلى آخر السفر، ثم قال أيوبّ: أتدري ما قصة هذا العصفور؟ قلت: لا، قال: إنّه كان يجيئني في منزلي كلّ يوم فكنت أفعل به ما رأيت، فلمّا خرجنا تبعنا يطلب منّا ما كنت أفعل به في المنزل». أما عن طائر النعام فذكر الدميري بأنّها: «اسم جنس مثل حمام وحمامة وجراد وجرادة، ويقال لها: أم البيض وأم ثلاثين، وتزعم الأعراب أنّ النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها فلذلك سُميت بالظليم. وكأنّهم إنمّا سمّوها ظليماً حين قطعوا أذنيها ولم يعطوها ما طلبت».

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

مؤلف هذا الكتاب هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، المولود في أوائل القرن السابع. ورحل إلى دمشق وهو شاب، وتعرف إلى ابن العربي. وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي. فسقطت بغداد في قبضة المغول، وهو في ذلك المنصب. وتوفي سنة ٦٨٢ هـ وقد خلّف مؤلفات أهمها كتابه المعروف: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، وهو كتاب في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب. وهو من أوفى الكتب العربيّة في هذا الموضوع، قسّم فيه المخلوقات إلى العلويات والسفليات. ورتب كلاً من الحيوانات والنباتات فيه على حروف المعجم. وله كتاب في التاريخ بعنوان: «آثار البلاد وأخبار العباد».

تناول القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» الكثير من المفاهيم الفلكية والجغرافية أيامه، فذكر في فصل عن خواص القمر وتأثيراته العجيبة والغريبة فقال: «وزعموا أنّ الذين يمرضون في أوّل الشهر أبدانهم وقواهم على دفع المرض أقوى، والذين يمرضون في آخر الشهر بالضدّ. ومنها أنّ شعور الحيوانات يسرع نباتها مادام القمر زائد النور ويغلظ ويكبر، وإذا كان ناقص النور أبطأ نباته ولم يغلظ».

ثم تناول المؤلف خواص الذئب فقال عنه: «حيوان كثير الخبث ذو غارات وحيل شديدة، وقلما يخطئ في وثبته، وينام بإحدى عينيه، وإذا أصاب إحداهما جراحة أكلته البقية، وإذا مرض ينفرد عن الذئاب لعلمه بأنّها إنْ علمت بضعفه أكلته، وإذا رأى مع الرجل عصا يفزع منه، ومَن رمى إليه الحجر يتركه، وإذا مرض أكل حشيشة تسمى جعدة يزول مرضه، وإذا دنا من الغنم يعوي إلى جهة أخرى ليذهب الكلب إلى الجهة التي سمع منها العواء ثم يأتي يسلب الغنم والكلب بعيد عنه ويأخذ بقفا الشاة ويضربها بذنبه حتى تعدو معه، وأكثر ما يأتي طلوع الشمس لأنّه يعلم أنّ الكلب طول الليل يحرس ولا ينام وفي ذلك الوقت يغلبه النوم».

مروج الذهب للمسعودي

يُعَدُّ كتاب «عجائب مروج الذهب ومعادن الجوهر» لمؤلفه علي بن الحسن المسعودي «ت ٣٤٦هـ-٩٥٧م» من الكتب الموسوعية في خزانة المكتبة العربيّة. والمؤلف باحث، ورحالة، ومؤرخ. نشأ في بغداد ورحل في طلب العلم والكشف إلى مختلف البلدان، وهو في العشرين من عمره.

ومن أبرز مؤلفات المسعودي كتاباه: « التنبيه والإشراف، ومروج الذهب ومعادن الجوهر». ويحتل كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مكانة كبيرة في المكتبة العربيّة، لأنّه ملأه بالمعلومات الجغرافية وأسماء المواضع، واستعرض فيه موضوعات متعددة واسعة. ومن خلال مطالعتنا في أجزائه الأربعة، وقفنا على بعض الغرائب والعجائب التي أوردها بين دفتيه. فقد تحدث المسعودي في الجزء الأول عن نوع غريب من النقد قائلاً: «وليس يوجد في جزائر البحر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر في سائر المهن والصنائع، في الثياب والآلات وغير ذلك، وبيوت أموال هذه الملكة الوَدَع، وذلك أنّ هذا الوَدَع فيه نوع من الحيوان، وإذا قلّ مالها أمرت هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه، ويطرحونَه على وجه الماء، فيتراكب عليه ذلك الحيوان، فيجمع ويطرح على رمل الساحل، فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان، ويبقى الوَدَع خالياً ممّا كان فيه، فتملأ من ذلك بيوت الأموال، وهذه الجزائر تعرف جميعها بالدبيجات ومنها يُحمل أكثر الزانج، وهو النارجيل».

ثم أشار صاحب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» إلى بعض عجائب مصر ونيلها إذ قال: « وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان ممّا في البر والبحر. ومن ذلك السمك المعروف بالرعّاد، وهو نحو الذراع، إذا وقعت في شبكة الصيّاد رُعِدَت يداهُ وعضدَاهُ، فيعلم بوقوعها، فيبادر إلى أخذها وإخراجها عن شبكته، ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك. والفَرَسُ الذي يكون في نيل مصر إذا خرجَ من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض

المواضع من الأرض عَلِم أهل مصر أنّ النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مُقصِّر عنه، لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب، وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والفلاحة لرعيه الزرع، وذلك أنّه يظهر من الماء في الليل فينتهي إلى موضع من الزرع، ثم يولي عائداً من ذلك شيئاً في ممره، كأنّه يُحدد مقدار ما يرعاه فمنها ما إذا رعت وردت إلى النيل فشربت ثم تقذف ما في أجوافها في مواضع شتى، فينبت ذلك مرّة ثانية، فإذا كثُر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع طرحَ له الترمس في الموضع الذي يعرف خروجه من مكاكيك كثيرة مُبدّداً مبسوطاً، ثم يعود إلى الماء فيربو في جوفِه، ويزداد في انتفاخه فيشقّ جوفه، فيموت ويطفو على الماء، ويقذف بِه إلى الساحل والموضع الذي يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح، وهو على صورة الفَرَس إلاّ أنّ حوافره وذنبه بخلاف ذلك، والجبهة أوسع».

خريدة العجائب وفريدة الغرائب

مؤلف هذا الكتاب هو سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي «٦٩٨-٧٤٩هـ». وكتابه كما أشار إليه في مقدمته يأتي بمثابة: «رسالة لطيفة باهرة كالشرح في توضيح ما في هذه الدائرة تبين للناظر فيها أحوال الجبال والجهات والبحار والفلوات وما اشتملت عليه من الممالك مستوعباً فيها لذلك إن شاء الله تعالى».

ونختار من صفحات كتاب ابن الوردي نماذج ممّا ذكره من تلكم العجائب والغرائب. فقد أشار في بيانه لجزيرة «الواق واق» التي ذكرت في الليالي

العربيّة- ألف ليلة وليلة- بأنّ: أرضهم واسعة وقُراهم عامرة وكل قرية على خُور وهي أرض كثيرة الذهب والخصب والعجائب، ولا يوجد البرد عندهم أصلاً ولا المطر وكذلك غالب بلاد السودان... وأهل بلاد الزنج كثيرون، وأكثرهم يحددون أسنانهم ويبردونها حتى ترّق ويبيعون أنياب الفيلة وجلود النمور والحديد ولهم جزائر يخرجون منها الوَدَع ويتحلّون به ويبيعونه فيما بينهم بثمن له قيمة ولهم ممالك واسعة».

كذلك ذكر المؤلف في أحد فصول كتابه عن جزيرة طاوزلق قائلاً: «وهو ملكٌ له أربعة آلاف امرأة وليس له ولد وعندهم شجرٌ عظيم إذا أكلوا منه أفادهم القوة...»! ثم تناول المؤلف بالذكر خواص أجزاء سِبَاع الوحوش كالأسد والنمر والفهد والكلب والذئب الذي قال عن عجائبه: «من خواص أجزائه: رأسه يُعلّق في برج الحَمَام لا يقربه سنور ولا حيّة ويدفن رأس الذئب في زريبة الغنم يمرض كلّ الغنم في الزريبة ويموت غالبها. أما دمه فيخلط بدهن الجوز ويقطر في الأذن يزيل الطرش...».

وبين صاحب (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) خصائص البلدان كمصر التي من خصائصها عنده «.. كثرة الذهب والدنانير وكان يقال في المثل السائر ما معناه: مَن دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه اللّه. ومنها ثعابين لا تكون إلاّ بمصر وهي عجيبة الشأن في إهلاك بني آدم والحيوان ليس لها عدو إلاّ النمس وهي إحدى العجائب لأنّها دُويبة متحركة إذ رأت الثعبان دنت منه من غير خوف ولا جزع فينطوي الثعبان عليها ويريد أن يأكلها فيزفر النمس زفرة ويقدّ- يقطع- الثعبان قطعتين أو قطعاً ولولا

النمس لأكلت الثعابين سكان مصر...». أما عن بغداد فأورد ابن الوردي ماقاله أحمد بن طاهر عنها بقوله:«هي جنّة الأرض وواسطة الدنيا وقبّة الإسلام ومدينة السلام وغرّة البلاد ودار الخلفاء ومعدن الظرائف واللطائف. ومن عجائبها أنّها على كونها حظيرة الخلفاء ومقرّها لا يموتُ فيها خليفة، قال عمارة بن عقيل فيها:

قضى ربّها أن لا يموتَ خليفة

بها إنه ما شاء في خلقهِ يُقضى

نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر

يشتمل كتاب«نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» لمؤلفه شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بـ«شيخ الربوة»، وهو مصنّف في الجغرافية على العلم بهيئة الأرض وأقاليمها وتقاسيمها، واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمورها من البحار المُتّصلة والمُنفصلة، والجزائر، والجبال، والأنهار، والبحيرات، والآثار القديمة، والينابيع العجيبة، والحيوان النادر الشكل، والنبات الغريب، وغيرها الكثير الكثير... وذكر شيخ الربوة المباني القديمة والآثار العجيبة فقال:« ومن المباني العجيبة إرم ذات العماد التي لم يُخْلَق مثلها في البلاد، ابتناها شدّاد بن عاد بين حضرموت وظفران من أرض اليمن، وطولها اثنا عشر فرسخاً في مثلهنّ، وأحاط بها سُوراً ارتفاعه مئتا ذراع، وبنى داخله قصوراً بعدد أهل مملكته، وأجرى في وسطها نهراً، وعمل منه جداول، وجعل حصاهم من أنواع الجواهر، وغرز على حافّته من

الأزهار كلّ فيّاح الزَهر طيّب الثَمر،... وطلى حيطانها من داخلها بالمِسك والعنبر،...».

ثم ذكر من المباني العجيبة سدّ ذي القرنين الذي بناه يأجوج ومأجوج، وقصر غُمدان بصنعاء، والأهرام بمصر، وحائط العجوز واسمها دلوكا في مصر، وملعب أَنْصِنا من أعمال مصر كان مقياساً للنيل، ويُنسب إلى أشمون ابن قفطيم بن صريم، ومن العجائب منارة الإسكندرية.

وختم المؤلف هذا الفصل من كتابه بذكر المباني العجيبة كالحصن المعروف بالحضر، وإيوان كسرى الذي بناه سابور ذو الأكْتاف، فلم يتمّه فأتمّه إبروز بن هرمز، وبُني في نيف وعشرين سنة، وطوله مئة ذراع في عرض خمسين ذراعاً، في سُمْك مئة ذراع، مبنِيٌّ بالجصّ والآجُرّ، ولمّا ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهب والإيوان إلى الآن موجود...

رابعـــاً:

قبسٌ من طرائف أخبار المُؤلّفات العربيّة

تضمّ خزانة الكتب العربيّة مئات المُصنفات في مختلف المعارف والعلوم والآداب والتاريخ والفكر والفلسفة التي تمثل خزين التراث العربيّ الإسلامي عبر العصور المتعاقبة من تأليف مبدعي حضارتنا الزاهية، والذي لا بُد من إحيائه ونشره بين العامة؛ ليكونوا على اطلاع بيّن لتلكم الإبداعات والإشراقات المُبدعة.

لقد كانت هناك ضوابط وعـادات وتقاليد اتبعها الأدبـاء والكُتّاب والنسّاخون والخطاطون والمجلّدون والمزوقون والرّسامون وغيرهم لإنتاج كتبهم، وهي ما تُسمى اليوم «طقوس الكتابة». فمن عادات الأدباء والكُتاب العرب أن يخطوا على متنّ مؤلفاتهم عبارات أو كتابة أبيات شعر معينـة. ونقرأ من ذلكم أنّ أحمد بن يوسف الأزرق التنوخي قال: أنشدنا أبو أسعد داود بن الهيثم بن البهلول لنفسه، وكتبها على ظهر دفتر، جمع فيه أخباراً وأشعاراً جعلها ترجمة له:

نُـتـفٌ مـن طـرائـف الأخـبـار
وشـذور الـمُـقـطـعـات الـقـصـار

نـزهـةٌ لـلـقـلـوب فـيـهـا ريـاضٌ
زيـنـتـهـا بـدائـعُ الأشـعـار

ويروي الدكتور يحيى الجبوري في « الكتاب في الحضارة الإسلاميّة» نماذج واستشهادات عن ذلك، منها أن نصر بن علي الجهضمي قال: أهدى أحمد بن المعدل إلى أبي يحيى عيسى بن أبي حرب، دفتراً فيه دُعاءٌ، وكتب إليه قوله:

فيه دُعاءٌ إذا ما الأمرُ أعضلني

واستحكم الهمُ في قلبي فأرّقني

ناديتُ مُعتمدي في كل نائبة

فلم أتممهُ حتى هو يخلصني

كما يُروى في هذا الباب- ما يُكتب على ظهر الدفتر- أي الكتاب، عن علي ابن عبدالله بن الحسن الهمذاني، قال: سمعتُ أبا الطيب محمد بن جعفر الورّاق يقول: قرأتُ على ظهر كتاب لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي قوله:

هذا كتابُ فوائد مجموعة

جُمعَت بكدِّ جوارحِ الأبدانِ

جُمِعَت على بُعْد المشقَة والنوى

والسيرِ بينَ فيافي البلدانِ

وقال القاضي أبو القاسم علي بن المُحسن التنوخي، أنشدني أبو الحسن النصيبي مؤدبي لنفسه، وترجم به كتاباً:

كتابٌ يحتوي جُمَل السرور

ويكسُو القلبَ أنواعَ الحُبُور

به أنسُ الوحيد إذا تخلى

بلوعته وبالدمع الغزير

دفتر طريف المعاني

ثم كتب محمد بن خلف المرزبان، قال: كتب بعض الأدباء إلى صديق له، وأهدى لهُ دفتراً: «قد أهديتُ لكَ من فنون كلامي، وعيون مقالي، دفتراً طريف المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ، يلذُّ بأفواهِ الناطقين، ويلين على أفواه الصامتين». وقال ابن المرزبان: أخبرني علي بن الحسن الكاتب، قال: أهدى بعض أهل الأدب إلى بعض الكتاب، في يوم نوروز، كتاباً فيه أخبار وآداب، فاستصغره واستقلّهُ، فكتب إليه المُهْدي:

هـديّـةٌ تـصـغـرُ لـكـنّـهـا
فـي عـيـنِ مَـن يـعـرفـهـا تـكْـبُـرُ

اقتناء الكتب

أما عن اقتناء الكتب والحرص والمحافظة عليها فيستشهد عن موسى بن عقبة أنّه قال: وضع عندنا كُرِيْب حِمْلَ بعير من كُتب ابن عباس، فكان علي بن عبدالله بن عباس، إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إليَّ بصحيفة كذا وكذا، فينسخها ويبعث بها. وقال بعض أهل العلم في ذلك المقام: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها، ولا يعتقد الغنَى عنها، فإنّه إن استغنى عنها في حال، احتاج إليها في حال، وإن سئمها في وقت، ارتاح إليها في وقت، وإن شُغِلَ عنها في يوم، فرغ لها في يوم، وألا يسرع ويعجل، فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رَامَهُ فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولاً، فلم يجد إليه سبيلاً،

فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرّقه، كالذي حُكي عن بعض العلماء، قال: بعتُ في بعض الأيام كتاباً ظننتُ أنّي لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هَجَسَ في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبته في جميع كتبي فلم أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح، فما زلت قائماً على رِجْلي إلى الصباح، قيل: فهلاّ قعدت؟ قال: لطُول أرقي وشدّة قلقي!

ألاّ يبيع كتاباً أبداً

وهذه حكاية رجل آخر في المعنى ذاته، حيث باعَ كتاباً، ظنّ أنه لا يحتاج إليه مع صاحبنا الآنف الذكر، ثم إنّه احتاج إليه فالتمس نسخة منه، فلم يجدها بعارية ولا ثمن، وكان الشخص الذي ابتاعه قد خرج إلى بلده فشخص إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن منه، فأبى عليه، فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه، فلم يجبهُ، فأنكفأ قافلاً وآلى على نفسه ألاّ يبيع كتاباً أبداً! ومثله أيضاً، فقد باع رجل آخر كتاباً ظنّ أنّه لا يحتاج إليه بعد اليوم ثم إنّه احتاج كلمة منه، فقصد صاحبه، وسأله أن يُكْتِبَهُ تلك الكلمة، فقال: واللّه ما تكتبها إلاّ بثمن الكتاب كلّه، فردّ عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة. وقيل لآخر: ألا تبيع من كُتبك ما لا تحتاج إليها؟ فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجتُ إليها بعد اليوم!

ويذكر أيضاً أنّ رجلاً اشترى كتاباً، فقيل لهُ: اشتريت ما ليس من علمك؟ فقال: اشتريتُ ما ليس من علمي ليصير من علمي. وقيل لثانٍ: ألا تشتري كُتباً تكون عندك؟ فقال لهم: ما يمنعني من ذلك إلاّ أنني لا أعلم، فقيل: إنّما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم. ويروى كذلك في اقتناء الكتب، أنّ

رجلاً كان يشتري كلّ كتاب يراه، فقيل له: إنّك لتشتري مالاتحتاجُ إليه، فقال: ربّما احتجتُ إلى ما لا يحتاجُ إليه. ومن شواهد الأشعار ما يُعزى إلى السَريِّ بن أحمد الكندي قوله:

لا تُـخـدَعَـنَّ عـن الـعـلـوم فـإنّـهـا
سُـرُجٌ يـزيـدُ عـلـى الـزّمـانِ ضياؤُها
تُـنْـسـى الـقُـرونُ فـلا يشيدُ بذكرها
أحــدٌ ويــذكـرُ دائـبـاً عـلـمـاؤُهـا
فـاحـرص عـلـى جـمـعِ الـعـلـوم فـإنّـها
ريُّ الـقـلـوبِ مـن الـصـدَى وشِـفـاؤُهـا

في سوق الورّاقين

ومن المرويات الأدبية والتاريخية عن أولئك العلماء والكتّاب وحرصهم وحبّهم للكتاب، يقال: إنّ بعض القضاة المسلمين كان قد اشترى الكتب بالدَيْنِ والقَرْضِ، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئاً بلغَ بي هذا المبلغ، فقيل: فإنّك تُكثِر؟ فقال: على قدر الصناعة تكون الآلة. وكذلك احتاج بعض النجارين إلى بيع فأسه ومنشاره فباعهما، وحزن عليهما، وندم على بيعهما، إلى أن رأى جاراً له من أهل العلم في سوق الورّاقين، وهو يبيع كتبه، فقال: إذا باعَ العَالِمُ آلتهُ، فالصانعُ أعذرُ منهُ، وسلا بذلك. وقيل أيضاً لعبدالله بن المبارك «رضيّ الله عنه»: يا أبا عبد الرحمن لو خرجت فجلست مع أصحابك قال: إنّي إذا كنت في المنزل جالست أصحاب محمّد -صلّى الله عليه وسلم- يعني النظر في الكتب.

وقال شفيق بن إبراهيم البلخي: قلنا لابن مبارك : إذا صليت معنا لا تجلس معنا ؟ قال أذهبُ فأجلس مع التابعين والصحابة . قلنا فأين التابعون والصحابة ؟ قال : أذهب فأنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم ما أصنع معكم؟ أنتم تجلسون تغتابون الناس.

وكان الزهري - رحمه الله - قد جمع من الكتب شيئا عظيماً وكان يلازمها ملازمة شديدة حتى إن زوجته قالت: «والله إنّ هذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر». وقيل لبعضهم : من يُؤنسك ؟ فضرب بيده إلى كتبه وقال: هذه. فقيل: من الناس ؟ فقال : الذين فيها.

وكان علماء المسلمين الأجلاء يقرؤون الكتب ويطالعون القراطيس والأوراق في جميع أحوالهم، ويقول ابن القيم -رحمه الله- :«وأعرف من أصابه مرض من صداع وحُمّى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجدَ إفاقة نظر فيه فإذا غلبه وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال : إنّ هذا لا يحلّ لك».

ينام والدفاتر حول فراشه

كما نقرأ في أسفار تراثنا عن حبّ العربيّ للكتاب، فقد رُويّ عن الحسن اللؤلؤي أنّه قال :«لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمتُ ولا نمتُ إلاّ والكتاب على صدري»! وكان بعضهم ينام والدفاتر حول فراشه ينظر فيها متى انتبه من نومه وقبل أن ينام! بينما نجد أنّ بعض أهل العلم كان يشترط على مَن يدعوه أن يوفر له مكاناً في المجلس يضع فيه كتاباً ليقرأ فيه. وعن أبرز المهتمين والمعتنين بقراءة ومطالعة الكتب، قال أبو العباس المُبرد: ما

رأيت أحرصُ على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان وإسماعيل ابن إسحاق القاضي. فأما الجاحظ فإنّه كان إذا وقع في يده كتاب قرأه من أوله إلى آخره، أيّ كتاب كان. وأما الفتح بن خاقان فكان يحمل الكتاب في خُفه فإذا قام من بين يدي الخليفة العباسيّ المتوكل بن المعتصم بالله ليصلي أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه. وأما إسماعيل بن إسحاق فإنّي ما دخلت عليه قطّ إلّا وفي يده كتاب ينظر فيه أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه.

ابن الجوزي...عشرون ألف مجلد

إنّ حرص السلف وعلماء المسلمين على جمع الكتب والنظر فيها شيء كبير، ويقول الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- في ذلك: «إنّي أخبر عن حالي ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أرَهُ فكأنّي وقعت على كَنزٍ، ولو قلت أنّي طالعت عشرين ألف مُجلّد كان أكثر وأنا بعد في الطلب». وقال بعض العلماء العرب في هذا المقام: «إذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه فلو تراني وأنا ساعة أنظرُ كَم بقي من ورقة مخافة استنفاده».

ويشير المؤرخون إلى أنّ بعض العلماء كانوا ينفقون في تحصيل الكتب الأموال الطائلة وربما أنفقَ بعضهم كلّ ما يملك في ذلك ، من ذلك ما قد اشترى الفيروز آبادي صاحب «مُعجم القاموس المحيط»، بخمسين ألف مثقال ذهباً كتباً وكان لا يسافر إلاّ ومعه أحْمال منها ينظر فيها كلما نزل

في سفره. وكان بعض العلماء يحسبون عند تفصيل ثيابهم حساب الكتب فهذا أبو داود - رحمه الله - كان له كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيق فقيل في ذلك فقال: «الواسع للكتب والآخر يحتاج إليه». وكان عند بعضهم خزانة كتب ليس فيها كتاب إلاّ وله ثلاث نسخ. كما بلغ من اهتمامهم بالكتب أنّهم ألفوا كتباً خاصة ذات فصول وأبواب عن آداب طالب العلم مع كتابه وكيفية النسخ والحثّ على الجيد من الورق وصفة القلم الذي يكتب به والحبر ولونه وطرق المحافظة على الكتاب، وغير ذلك من الآداب.

فضلُ الدرس

وتطالعنا في الأسفار العربيّة حكايات وروايات عن بيان فضل الدرس والمطالعة ومنها ما حدث به إبراهيم بن المنذر عن أيوب بن عباية إذ قال: قيل لابن دأب: يا أبا الوليد: إنّك رُبّما حملت الكتاب وأنت رجل تجدّ في نفسك، قال: إنّ حملَ الدفاتر من المروءة. وأخبر أبو بكر أحمد بن المفضل المعروف بسندانة، قال: أملى عليّ عبدالله بن المعتز، قال: رأى المأمون بعض ولده وبيده دفتر، فقال: ما هذا يا بُنَي، قال: بعض ما يشحذ الفطنة، ويُؤنس الوحدة، فقال المأمون: الحمد لله الذي رزقني من الذرية مَنْ يرى بعينِ عقله، أكثر ممّا يرى بعين جسمه.

وكان علماء حضارتنا أحرص الناس على طلب العلم وتحصيله، وفي انتقاء الأحسن من المصنفات، ويروى في هذا المقام عن أبي العيناء محمد ابن القاسم بن خلاّد، قال ابن عباس: العلم كثير، ولن تعيه قلوبكم، ولكن ابتغوا أحسنه، ألم تسمع قوله تعالى: «الذينَ يستمِعُونَ القولَ فَيَتَّبِعُونَ،

أحسنَهُ أولئكَ الذين هَداهُم اللهُ وأُولئكَ هُم أُولُو الألباب». وعن أبي عمرو بن أبي مُعاذ، قال: كان الخليفة المأمون يُوصي بعض بَنيه فيقول: اكتب أحسن ما تسمع، وأحفظ أحسن ما تكتب، وحدِّث بأحسن ما تحفظ. وأنّ أبا زيد الأنصاري كان قد رأى رجلاً حَسَن العلم، كثير الرواية، جيد الحفظ لمُلَحِ الأخبار، لا يتمثل إلاّ بحَسَن، ولا يستشهد إلاّ بجيد، فقال: كأن والله علمه من ظهور الدفاتر. وقال المُعافى بن زكريا الجريري: يريد به ظهور الدفاتر، لا يكتب عليها إلاّ الأحسن.

ولا آنسُ من كتاب

وحول الأنسِ بالكتب والاستمتاع بعلومها وآدابها وفكرها نشير إلى أنّ عبدالله بن عبدالعزيز العمري كان يلزم الجَبَّان- المقبرة- كثيراً، فكان لا يخلو من كتاب يكون معه ينظر فيه، فقيل له في ذلك، فقال: إنّه ليس شيء أوعظ مِن قبر، ولا أسلمُ مِن وحدة، ولا آنس مِن كتاب. و قد سمع الحارث بن أبي أسامة، موسى بن هارون البرزي، يقول: عُوتِبَ بعض الأدباء على لزومه منزله، وتركه مُحادثة الرجال، فأجاب بجوابٍ مدحٍ فيه كتبه، فقال:

لنا جُلساء ما نَمَلُّ حديثَهم
ألِبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من رأيهم علْم مَن مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسددا

ونختم حديث الأنس والإمتاع من نُتَف طرائف الأخبار في رحاب الكتب الماتعة المُؤنسة بذكر أبيات لؤلؤ بن عبدالله القصيري، عن ابن المعتز

في قوله:

جعلتُ كتبي أنيسي

من دون كلِ أنيسِ

لأنني لستُ أرضى

إلاَ بكُلِ نَفِيْسِ

خامساً:

خَزَائِنُ الكُتب

اهتمام بتوفير مصادر المعرفة

محبةُ الكتب جليّة وعظيمة في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: «فيها كُتبٌ قيِّمة». وقد سمى القرآن الكريم نفسه «بالكتاب»، كما سُمِي الذميون بأهل الكتاب. وحتى قبل أن يظهر الورق كانت للعلماء العرب مكتباتهم، ويذكر أنّ عبدالله بن عباس -رضيّ الله عنهما- حين توفاه الله « أُخرِجَت من بيته أحْمَال من الكتب».

وكانت لدى الخلفاء الأمويين مكتباتهم الخاصة، ويورد شاكر مصطفى في «المدن في الإسلام... بأنّ مكتبة خالد بن يزيد في مدينة حمص قد بدأت عصر الترجمة في الإسلام. وليس صحيحاً أنّ رواة العلم الأوائل لم يكونوا يكتبون ولهم كتبهم ولكنهم كانوا يسجلون للتذكر، وإنّما لا يتناقلون العلم إلاّ مُشافهة خوف التبدل فيه.

ولم تظهر المكتبات بشكل واسع- تتسع الكتب نفسها- إلاّ منذ القرن الثالث بعد انتشار الورق وصناعته في عاصمة الخلافة العربيّة الإسلاميّة

بغداد. وكـان امتلاك مكتبة في أيّ منزل علامة على السِعَة والغِنَى لصاحبها. والرواة لأخبار العرب والشعر هُم الذين اهتموا بأن تكون لهم مكتباتهم الخاصة لأنها من صناعتهم. وهي تكبر وتصغر حسب مبلغهم من الغِنَى. ولقد يبيع بعضهم كتابه من الفقر، ولقد يغسله ليكتب عليه أمراً آخر!

ورغم أنّ ثمن الكتاب مرتفع وأجرة نسخه مرتفعة بدورها، ومع ذلك فقد سمح الغِنَى للخلفاء والوزراء وكبار العلماء المُوسرين بأن تكون لديهم مكتبات ضخمة كان من بقاياها هذا التراث من خزائن المخطوط من الكتب والموزع بين مكتبات العالم والذي يُعدّ بعدّة مئات من الألوف. ويورد د. أحمد شلبي في «موسوعة الحضارة الإسلاميّة» عن اهتمام المسلمين بالمكتبات، وكيف لجأ من أحبّ تعليم الناس إلى إنشاء مكتبة يجمع فيها الكتب ويفتح أبوابها للناس، كما فعل البطالسة في مكتبة الإسكندرية بمصر، والعباسيون في بيت الحكمة في بغداد.

وكانت الكتب نواة الجامعات الإسلاميّة المبكرة، كبيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في القاهرة، وقد كان ذلك داعياً إلى اختلاف المؤرخين في طبيعة هذه المؤسسات؛ وما إذا كانت تُعدّ مدارس أو مكتبات، ثم أصبحت هذه نماذج لهذا النوع من المنشآت سواء شيدتها الدولة أو أسسها الأفراد،

وعلى هذا أصبحت المكتبات في العالم الإسلامي في تلك العصور تقوم بمهمة المعاهد العلميّة في العصر الحديث، بالإضافة إلى ما تؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات لمرتاديها من الباحثين والمطالعين.

بيت الحكمة في بغداد

يُعدُّ القرآن الكريم أول كتاب عرفه المسلمون وحملوه معهم في فتوحاتهم، ولقد شهد المسلمون أثناء فتوحاتهم لدى الأمم المجاورة كتباً مخطوطة، فما أعاروها أهمية، ولكنهم حين بدؤوا يعتنون بالتفسير والحديث الشريف والشِعر والخطب والأمثال والحِكَم، شعروا بالحاجة إلى التدوين ونسخ الكتب وحفظها في أماكن عرفت فيما بعد بـ«بيت الحكمة»، أو«خزانة الحكمة».

ويحدثنا الدكتور يحيى وهيب الجبوري في «الكتاب في الحضارة الإسلاميّة» عن أول ذكر لبيت الحكمة البغدادي الذي يرد مرتبطاً بمعاوية بن أبي سفيان ومنسوباً إليه، ففي المناظرة التي كانت بين عثمان بن سعيد الدارمي «ت ٢٨٠هـ»، وبين بشر المريسي «ت ٢١٨هـ»، يقول الدارمي: «وادعى المعارض أيضاً أنّه سمع أبا الصلت يذكر أنّه كان لمعاوية بن أبي سفيان بيت يُسمى بيت الحكمة، فكلما وجد حديثاً ألقاهُ فيه، ثم رُويت بعد». ومعروف أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان مهتماً

بسماع الأحاديث وسِيَر الملوك وأخبار الماضين وتدوينها والاحتفاظ بها للانتفاع منها، فمما عُرِفَ عنه أنّه «كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، ويحضر الدفاتر وفيها سِيَر الملوك وأخبار الحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها».

وذكر ابن النديم في « الفهرست» أنّ معاوية قد استقدم عُبيد بن شَرِيّة الجرهمي «ت ٦٧هـ» وهو أول مَن صنّف الكتب من العرب، فكان معاوية يسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم، فيحدثه، فأمر الخليفة بتدوين أخباره، فأملى كتابين، أولهما «الملوك وأخبار الماضين»، والثاني «كتاب «الأمثال».

أيام الرشيد والمأمون

ثم يُعرِّج الجبوري ليحدثنا عن بيت الحكمة في العصر العباسي أيام الخليفة أبي جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد، فيقول: إنّ الخليفة عُرِفَ بميله وولعه بعلم النجوم، بالإضافة إلى العلوم الأخرى، وكانت عنايته بالعلوم العربيّة، من الفقه والحديث ورواية الأخبار والتاريخ، لا تقلّ عن عنايته بالعلوم الطبيعية المُترجمة، من ذلك أنّه أمر محمد بن إسحاق «ت ١٥١هـ» أن يُؤلف كتاباً في التاريخ لابنه المهدي منذ آدم حتى زمن المنصور، وكذلك ألف عبدالجبار بن عدي له كتاباً في آداب الحروب،

وصنف المفضل الضبيّ بأمر المنصور كتاب «المفضليات» الذي كان يضم قصائد يُؤدب بها المهدي.

أما زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد فقد أثريت خزانة بيت الحكمة ومنه إذ جاءتها دفعة كبيرة من الكتب بعد فتح هرقلة وأقاليم بيزنطية أخرى عام «١٩٠هـ»، حيث جُلِبَ إلى بيت الحكمة ممّا وُجِدَ بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم... وكان الخليفة الرشيد قد أوكل إلى يوحنا بن ماسويه مهمة ترجمة هذه الكتب الرومية، ورتبّ له كُتّاباً حذّاقاً يكتبون بين يديه، وقد صار لبيت الحكمة ببغداد مكانة خاصة، وقد اقترنت فيه حركة الترجمة بالمراصد الفلكية، وبخزانة الكتب التي حفظت فيه، ونُظّم لها مُترجمون ونُسّاخ وكُتّاب مَهَرة، وكان مِن جُمْلَة النُسّاخ الذين يكتبون للرشيد الشاعر علاّن بن الحسن.

وفي زمن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد كان بيت الحكمة في أوج عطائه وازدهاره العلمي والفكري وتوسعه ورسوخه، إذ كان مُحباً للعلم والعلماء ومجالستهم، وكان همّه أن يزود بيت الحكمة بكتب الفلسفة والعلوم لترجمتها والإفادة منها، فدأب على مراسلة إمبراطور الروم وإرسال البعثات إلى بلاده لاجتلاب الكتب. وبعد سنين معدودات ونتيجة لاهتمام الخليفة باجتلاب الكتب المختلفة إلى بيت الحكمة، أصبح أشهر خزانة

كتب ومركزاً للترجمة والـتأليف، وغدا مركزاً للأبحاث ورصد النجوم وأنّ الكتب التي ضمّها هذا البيت لها جملة مصادر، أولها الكتب القديمة التي وصلت عن طريق الوراثة والاقتناء، وهي كتب عربية ويونانية وفارسية وسريانية، وثانيها الكتب التي ترجمت عن تلك اللغات الأجنبية، وثالثها الكتب التي أُلِفَت للمأمون ولغيره من الخلفاء وغيرهم، ورابعها الكتب التي نسخها النُسّاخ الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة.

مكتبات للعامة

ومن المكتبات العامة في الحضارة الإسلاميّة خزانة الحكمة لعلي بن يحيى المُنجّم، التي قال عنها ياقوت الحموي في معجم الأدباء: «وكان بكركر- قرب بغداد- ضيعة نفيسة للمُنجّم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يُسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مُشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى...».

وهناك «دار العلم» في الموصل وقد أنشأها الفقيه أبو القاسم جعفر ابن محمّد الحمداني، في القرن الرابع الهجري، وجعل فيها خزانة كتب في جميع العلوم وقفاً على كلّ طالب علم لا يُمنَع أحد من دخولها. وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان مُعسراً أعطاه ورقاً وورقاً. وكانت دار العلم

تُفتح في كل يوم ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس ويُملي عليهم مِن شعرهِ ومِن شِعر غيره.

دور العلم.. مكتبات عامرة

أنشأ أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي وزير الخليفة المُستضيء العباسي خزانة المسجد الزيدي، الذي نذر إن رجع للوزارة أن يرسل إلى الزيدي ألف دينار وعاد فزادها الخليفة ألفاً أخرى فاشترى الزيدي داراً وبناها مسجداً ووقف فيها كتبه وكانت كثيرة وتلقت هذه الخزانة منحة مجموعتين من الكتب واحدة جاءتها من دمشق وقفها على المسجد أبو الخطاب العلمي الدمشقي والثانية كتب ياقوت الحموي.

أما دار العلم في طرابلس- لبنان- فقد أقيمت في النصف الثاني من القرن الخامس العام ٤٧٣هـ أقامها الحسن بن عمّار قاضي طرابلس وحاكمها. وكانت مكتبة ضخمة يصفها بعض المؤرخين بقول شاكر مصطفى في «المدن في الإسلام» بأنّها كانت تجري ثلاثة ملايين كتاب منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم. وكان يعمل فيها مئة وثمانون نسّاخاً، ثلاثون يعملون ليل نهار. وكان في طرابلس معمل لإنتاج الورق. ولها رجال يجوبون البلاد في شراء الكتب وكان يقصدها العلماء من كل مكان، وكان يسكن فيها طلاب ومدرسون.

ومكتبات خاصة

بعد ذكر المكتبات العامة، نشير إلى المكتبات الخاصة في العالم الإسلاميّ التي تكشف للقارئ مدى الولع بالكتب عامة في المدينة الإسلاميّة. وفيها مَن كان يحرم نفسه الطعام ليشتري كتاباً أو يبيعه لحاجة وهو يبكي وهؤلاء الفقراء المولعون بالكتب أكثر من أن يُحصوا لأنّهم يشكلون عُشّاق الثقافة، أما فئة أرستقراطية المثقفين فهي التي بقيت لنا أخبارها وأخبار مكتباتها الخاصة وهي بدورها كثيرة جداً وبعضها الخاص والعام.

ولعلّ أول المكتبات هي مكتبات الخلفاء سواء منهم العباسيون أم الأمويون في بلاد الشام والأندلس. فبيت الحكمة كما ذكرنا إنّما نشأت أول الأمر مكتبة للخليفة. وهناك مكتبة الخلفاء الأمويين في قصر الخضراء في دمشق، وقد أخرج الخليفة عمر بن عبدالعزيز منها كتاباً في الطب استخار الله أربعين يوماً قبل أن يدفعه للناس. ومثل مكتبة الحكم بن عباد صاحب الأندلس الذي كان يرسل التجار إلى المشرق لاصطياد المؤلفات الجديدة ويرسل إليهم الأموال وقد استطاعوا أخذ نسخة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني قبل أن تذيع شهرته في المشرق وكتاب القاضي أبي بكر الأبهري «ت ٣٧٥هـ» في شرحه لمختصر ابن عبدالحكم. وهكذا كان فهرس مكتبته يتألف من «٤٤ كراسة»، كلّ واحدة منها «٢٠ ورقة»، ولم يكن

بها سوى أسماء الكتب.

زيارة المقدسي وابن سينا

أورد المؤرخون نبذاً من أخبار المكتبات الخاصة، ومنها أنّ المقدسي الجغرافي المعروف، دخل خزانة الكتب في دار عضد الدولة البويهي بشيراز ووصفها بأنّها «حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومُشرف من عدول البلد. ولم يبقَ كتاب صُنِّفَ إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلاّ وحصله فيها. وهي أزج طويل في صفّة كبيرة فيه خزائن في كلّ وجه. وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر مُنضدة على الرفوف لكلّ نوع بيوت وفهارس فيها أسامي الكتب، ولا يدخلها إلاّ كلّ وجيه...». وكذلك يروى أنّ الطبيب ابن سينا دخل خزانة كتب نوح بن منصور في مدينة بخارى فوصفها قائلاً: «دخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كلّ بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض. في بيت منها كتب العربيّة والشعر وفي آخر الفقه. وكذلك في كلّ بيت كتب علم مفرد».

المزايدة لشراء الكتب

وقد روى المؤرخ المقري الأندلسيّ أنّ أحد علماء الأندلس قد زَاوَدَ

في السوق على كتاب يحتاجه حتى بلغ الحدّ، وخصمه في الشراء يزيد فيه فسأله عن حاجته إلى الكتاب، فقال: لا حاجة له بموضوع ولكنّ في مكتبته فراغاً بمقداره ويريد أن يكملها به، ليتجمّل بها بين أعيان البلد. وثمة العديد من المكتبات الخاصة بقدر ما كان ثمة رؤساء وكبار فلا يخلو بيت واحد منهم من جملة كتب حتى إذا تضخمت جداً اشتهرت،مثلما أرسل نوح الساماني في بلاد ما وراء النهر يستدعي الصاحب بن عباد وكان من جملة ما اعتذر به أن كتبه تحمل على «٤٠٠ جَمَل»، ويقع فهرسها في عشرة مجلدات وبقي في مدينة الريّ.

ابن خاقان... لم يرَ أعظم منها

بينما جمع القاضي أبو المطرف «ت ٤٠٢هـ» قاضي الجماعة بقرطبة ما لم يجمعه أحد من أهل عصره من الكتب في الأندلس وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً. وكان متى علم بكتاب حَسن عند أحد بالغ فيه حتى يشتريه وكان لا يُعير كتاباً من أصوله البتة ولكنه يسمح بنسخها وقد اجتمع أهل قرطبة عاماً كاملاً بعد وفاته لبيع ما فيها من الكتب التي بلغ ثمنها أربعين ألف دينار مكرر! وكان في مكتبة الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل على الله العباسي قيمّ عليها هو علي بن أبي منصور المُنجّم زودها بما يزيد على خزانة حكمه واستنسخ لها الكتب

الكثيرة حتى كانت حسب قول ابن النديم في « الفهرست» مكتبة «لم يرَ أعظم منها كثرة وحُسناً».

مكتبة ابن منقذ الغارقة

من المكتبات الخاصة مكتبة حُنين بن إسحاق المُترجم التي كانت تتميز لا بكثرة الكتب فقط ولكن بتعدد لغاتها من اليونانية والسريانية وصل أكثرها بلاد الروم. وهناك مكتبة الأمير أسامة بن منقذ التي غرقت وهي عائدة من مصر إلى الشام وحزن عليها أكثر من حزنه على أيّ شيء ضاع من ماله معها، ونجد مكتبة البرقاني العالِم البغدادي الذي احتاج حين أراد أن ينتقل إلى ستين عدلاً وصندوقين لحمل كتبه.

وقد كان المبشر بن فاتك من أعيان أمراء مصر قد جمع مكتبة ضخمة فيها علوم الأوائل، وقد أغرقت زوجته كتبها في الماء بعد وفاته غيْرةً منها وحُزْناً على زوجها الذي أضاع حياته في حُبّ الكتب! في حين جمع القفطي في مدينة حلب مالا يُوصف من الكتب وقصد من أجلها الآفاق. واستغنى بها عن الزوجة والولد. وقد أوصى بها للناصر الأيوبي صاحب حلب وكانت مكتبته هذه تساوي نحو خمسين ألف دينار. كما دخل أبو يوسف القزويني بغداد «ت ٤٨٨هـ» ووراءه عشرة جِمَال تحمل كتبه الأثيرة.

٣٠٠ ألف درهم للكتب

كانت مكتبة ابن الخشّاب الذي جمع مكتبة عظيمة رغم بُخلهِ في تصيد الكتب. وقد وقف كتبه على أهل العلم في أواخر حياته. وقد صادر ملك قشتالة من البحر سفينة تحمل الكتب إلى سلطان المغرب فهي اليوم ثروة مكتبة الإسكوريال من المخطوطات ويصادف المرء هذا النوع من الأخبار في جميع المصادر التي تتحدث مرّة عن عالم في أصفهان من الموسرين «ت ٢٨٢هـ» أنفق في شراء أو نسخ كتبه ثلاثمائة ألف درهم. وعن رجل آخر هو محمّد بن نصر الحاجب «ت ٣١٢هـ» الذي خلفَ كُتباً بألفيّ دينار، وعن مُصادرة حبشي بن معز الدولة عن عصيانه لأخيه، فكان من جُملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مُجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد، وعن مكتبة الوزير ابن العميد الذي سُرقَ بيته كله بما فيه ولكنه حين أبلغ أنّ خزانة كتبه سليمة سُرّي عنه ونَضُر وجهه!

المصادر والمراجع المعتمدة

أولاً: المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. الجاحظ: «الحيوان»، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى في مصر،«د.ت». - «البخلاء»، دار المعارف، سوسة، تونس، ١٩٨٩م.

٢. الجبوري، يحيى وهيب: «الكتاب في الحضارة الإسلاميّة»، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

٣ . الحبشي، عبدالله محمّد: «الكتاب في الحضارة الإسلاميّة»، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، دولة الكويت، ١٩٨٢م.

٤. حمادة، محمد ماهر: «رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكراً ومادة»، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

٥. ابن خلدون : « المقدمة»، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

٦. الدميري: «حيّاة الحيوان الكبرى»، دار إحياء التراث العربيّ، القاهرة، مصر، ١٩٩٥م.

٧. الذنون، عبدالحكيم: «بدايات الحضارة»، دار علاء الدين، دمشق، سوريّة، ١٩٨٣م.

٨. شيخ الربوة: «نُخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر»، دار إحياء

التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
٩. الزبيدي، محمد حسين: «ملامح من النهضة العلميّة في العراق في القرنين الرابع والخامس الهجريين»، دار الحريّة للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٨م.
١٠. السامرّائي، محمّد رجب: «أبو حيّان التوحيدي إنساناً وأديباً»، الأوائل للنشر والخدمات الطباعية، دمشق، سورية، ٢٠٠٢م.
١١. ستيبتشفيتش، ألكسندر: تاريخ الكتاب «القسم الأول»، ترجمة محمّد.م. الأرناؤوط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب «عالم المعرفة ١٦٩»، الكويت، يناير ١٩٩٣م.
١٢. ستيبتشفيتش الكسندر: تاريخ الكتاب «القسم الثاني»، ترجمة محمّد.م. الأرناؤوط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب «عالم المعرفة ١٧٠»، الكويت، فبراير ١٩٩٣م.
١٣. شلبي، أحمد: «موسوعة الحضارة الإسلاميّة»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
١٤ عزالدين، يوسف: « الحركة الفكرية في العراق»، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٨٤م.
١٥. عطية، جورج: الكتاب في العالم الإسلاميّ، ترجمة عبدالستار الحلواجي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب «عالم المعرفة

٢٩٧»، الكويت، أكتوبر ٢٠٠٣م.

١٦. القزويني: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

١٧. المسعودي: «مروج الذهب»، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

١٨. نخبة من أساتذة التاريخ: العراق في موكب الحضارة / الأصالة والتأثر، دار الحريّة للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٨م.

١٩. الهوش، أبو بكر محمود: « لمحة حول الكتاب والمكتبات في الحضارة الإسلاميّة»، جمعية الدعوة الإسلاميّة العالميّة، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٦م.

٢٠. ابن الوردي: « خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، شركة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ١٩٣٩م.

ثانياً: الدوريات

١. خلود محمّد: « حياة الحيوان الكبرى للدميري»، تراث، نادي تراث الإمارات، العدد» الخامس، أبريل ١٩٩٩م، أبو ظبي، دولة الإمارات العربيّة المتحدة.

٢. محمّد رجب السامرّائي: ملحق» الاتحاد الثقافي»، الاتحاد،

شركة أبوظبي للإعلام، أبوظبي، دولة الإمارات العربيّة المتحدة، انظر الموضوعات الآتيّة:

-«الكتاب رحلة لإنتاج المعرفة الإنسانيّة، العدد «٨٣» في ١٧ مارس ٢٠٠٩م.

- «التلاقح الثقافي المُتبادل في إنتاج المعارف والفكر الإنسانيّ، العدد «٨٤» في ١٨ مارس ٢٠٠٩م.

- «الوراقة والوراقون ازدهار لاستنساخ أوعيّة المُثاقفات العامة، العدد «٨٥» في ١٩ مارس ٢٠٠٩م.

- «المُصنفّات العربيّة... الغريب والعجيب في أنيس الجُلساء، العدد «٨٦» في ٢٠ مارس ٢٠٠٩م.

- «الكتاب الأنيس، العدد«٨٧» في ٢١ مارس ٢٠٠٩م.

- «خزائن المكتبات، العدد«٨٨» في ٢٢ مارس ٢٠٠٩م.

محمد رجب السامرّائي

- مواليد سامرّاء في العراق
- بكالوريوس آداب، كلية التربية جامعة بغداد، ماجستير في اللغة العربيّة «أدب ونقد»، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- يكتب في الأدب والثقافة والتراث وفي التراث الشعبيّ منذ الثمانينيات في الصحف والمجلات العراقيّة والخليجيّة في: «السعودية، قطر، البحرين، عُمان، الإمارات».
- عضو اتحاد الأدباء العرب.
- عضو اتحاد الأدباء والكتّاب العراقيين.
- فاز بجائزة أفضل بحث عن الصيد والصقور عند العرب، في معرض الصيد والفروسية في أبوظبي ٢٠٠٨م.
- يعمل حالياً صحفياً في «نادي تراث الإمارات»، في إمارة أبو ظبي في دولة الإمارات العربيّة المتحدة.
- صدرت له الكتب الآتيّة:

«علم الفلك عند العرب، الإبل ذاكرة الصحراء، أصايل الإبل، رمضان في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، أبو حيّان التوحيديّ إنساناً وأديباً، رمضان والعيد عادات وتقاليد، أسماءٌ في القرآن الكريم، وألوانٌ من التراث الشعبيّ في العراق».

- وله تحت الطبع الكتب الآتيّة:

« التراث الشعبيّ في الإمتاع والمؤانسة للتوحيديّ.

«غطاء الرأس في التراث الشعبيّ العربيّ».

«آياتٌ في الآفاق».

«مرايا شعبيّة عادات وتقاليد عربيّة».

«قبسٌ من التراث العربيّ».

«أَعْجَبُ الغَرائِب وأَطْرَفُ العَجَائِب».